[القسم على الله بمخلوقاته ممنوع]

واما الأدعية التي يدعو بها بعض العامة، ويكتبها باعة الحروز[٧٢] من الطرقية[٧٣]، التي فيها: اسألك باحتياط قاف، وهو يوف المخاف، والطور والعرش، والكرسي، وزمزم والمقام، والبلد الحرام. وامثال هذه الادعية. فلا يؤثر منها شيء؛ لا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة ولا عن أئمة المسلمين، وليس لأحد ان يقسم بهذه بحال؛ بل قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: «من كان حالفاً فليحلف بالله، او ليصمت»[٧٤] وقال «من حلف بغير الله فقد اشرك»[٧٥] فليس لأحد ان يقسم بالمخلوقات البتة،[٧٦] وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ان من عباد الله من لو أقسم على الله لابره»[٧٧] لما قال انس بن النضر: أتكسر ثنية[٧٨] الربيع؟ لا! والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيع، وكما قال البراء بن مالك: اقسمت عليك أي رب؛ الا فعلت كذا وكذا»[٧٩] وكلاهما [٨٠] كان ممن يبر الله قسمه.

---

(٧٢) الحروز: جمع حِرز، هو هنا عبارة عن التعاويذ أو الرقى التي يكتبها بعض المشايخ لبعض الناس دفعاً لمكروه أو استجلاباً لمصلحة.

(٧٣) الطرقية: نسبة الى الطرق الصوفية.

(٧٤) متفق عليه.

(٧٥) رواه الترمذي وحسنه.

(٧٦) البتة: اسم المرة من (بتّ) بتةً: أي قطعاً وبدون رجعة ولا عَوْد. يقال: لا أفعله البتة: أي لا أفعله مطلقاً، ومعناه أني قطعت هذا القول قطعة واحدة لا رجعة فيها ولا تردد، وهو مصدر منصوب بفعل مقدر والتاء للمبالغة.

(٧٧) قوله: لأبرّه: الضمير في الهاء يعود على الله تعالى أي لأبره الله، بمعنى أبرّ قسمه، أي قبله واستجاب له. يقال: أبرّ الله حجّه: أي قبله.

(٧٨) الثنية: واحدة الثنايا، أسنان مقدم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل.

(٧٩) هو قسم يتضمن معنى الدخول على الله تعالى بالرجاء.

(٨٠) كلاهما: يريد البراء بن مالك وأنس بن الربيع رضي الله عنهما.

[ما يجوز ان يسأل الله به ويتوسل به وما لا يجوز]

والعبد يسأل ربه بالأسباب التي تقتضي حصول مطلوبه، وهي الأعمال الصالحة التي وعد الثواب عليها، ودعاء عباده المؤمنين الذين وعد اجابتهم كما كان الصحابة يتوسلون إلى الله تعالى بنبيه، ثم بعمه، وغير عمه من صالحيهم: يتوسلون بدعائه وشفاعته، كما في الصحيح: ان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ استسقى بالعباس، فقال: اللهم! انا كنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون. فتوسلوا بعد موته بالعباس، كما كانوا يتوسلون به، وهو توسلهم بدعائه وشفاعته. ومن ذلك ما رواه اهل السنن وصححه الترمذي: «ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ادع الله ان يرد علي بصري، فامره ان يتوضأ، ويصلي ركعتين، ويقول: اللهم اني اسألك واتوجه اليك بنبيك محمد، نبي الرحمة، يا محمد! يا رسول الله! اني أتوجه بك الى ربي في حاجتي ليقضيها، اللهم: فشفعه في» فهذا طلب من النبي صلى الله عليه وسلم، وامره أن يسأل الله ان يقبل شفاعة النبي له في توجهه بنبيه الى الله هو كتوسل غيره من الصحابة به الى الله، فان هذا التوجه والتوسل هو توجه وتوسل بدعائه وشفاعته.

واما قول القائل: أسألك أو اقسم عليك بحق ملائكتك، او بحق انبيائك او بنبيك فلان او برسولك فلان، او بالبيت الحرام، او بزمزم والمقام، أو بالطور والبيت المعمور، ونحو ذلك. فهذا النوع من الدعاء لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا اصحابه، ولا التابعين لهم باحسان، بل قد نص غير واحد من العلماء كأبي حنيفة وأصحابه ـ كأبي يوسف وغيره من العلماء ـ على انه لا يجوز مثل هذا الدعاء، فانه اقسم على الله بمخلوق، ولا يصح القسم بغير الله، وان سأله به على انه سبب ووسيلة الى قضاء حاجته.

اما اذا سأل الله بالأعمال الصالحة وبدعاء نبيه والصالحين من عباده فالأعمال الصالحة سبب للاثابة[٨١] ، والدعاء سبب للاجابة ، فسؤاله بذلك سؤال بما هو سبب لنيل المطلوب ، وهذا معنى ما يروى في دعاء الخروج إلى الصلاة : «اللهم إني اسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاي[٨٢] هذا » وكذلك أهل الغار الذين دعوا الله بأعمالهم الصالحة[٨٣] . فتوسل إلى الله بالنبيين هو التوسل بالايمان بهم ، وبطاعتهم ، كالصلاة والسلام عليهم ، ومحبتهم ، وموالاتهم ، أو بدعائهم وشفاعتهم . وأن نفس ذواتهم فليس فيها ما يقتضي حصول مطلوب العبد ، وان كان لهم عند الله الجاه العظيم والمنزلة العالية بسبب اركام الله لهم وإحسانه اليهم وفضله عليهم ، وليس في ذلك ما يقتضي إجابة دعاء غيرهم ، إلا ان يكون بسبب منه إليهم كالإيمان بهم والطاعة لهم ، أو بسبب منهم اليه . كدعائهم له ، وشفاعتهم منه ، فهذان الشيئان يتوسل بهما .

وأما الإقسام[٨٤] بالمخلوق فلا؛ وما يذكره بعض العامة من قوله : «اذا سألهم الله فاسألوه بجاهي ، فإن جاهي عند الله عظيم » حديث كذب موضوع .

فصل
[اتخاذ الأثار مساجد ومزارات من مخلقات بدع أهل الكتاب]

وأما قول السائل : هل يجوز تعظيم فكان فيه خلوق[٨٥] وزعفران[٨٦] ؛

---

(٨١) يقال : أثابه بمعنى : جازاه، وأثابه جزاءه : أعطاه إياه.

(٨٢) الممشى : مكان التمشي، يجمع على مماشٍ .

(٨٣) يشير الى حديث رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم يحكي فيه قصة ثلاثة نفر من بني اسرائيل آواهم المبيت الى غار. .

(٨٤) يقال : أقسَمَ بالله . . إقساماً : حلف به .

(٨٥) الخَلوق بفتح الخاء : ضرب من الطيب. أعظم أجزائه الزعفران.

(٨٦) الزعفران : جنس نبات بَصَليٍّ، زهره أحمر إلى الصفره، من فصيلة السوسنيات. يستعمل لتطييب بعض أنواع من المَرَق أو الحُلْويّات، وبخاصة لتلوينها بالأصفر.

لكون النبي صلى الله عليه وسلم رؤي عنده؟ فيقال: بل تعظيم مثل هذه الأمكنة واتخاذها مساجد ومزارات لأجل ذلك هو من أعمال أهل الكتاب، الذين نهينا عن التشبه بهم فيها. وقد ثبت أن عمر بن الخطاب كان في السفر فرأى قوماً يبتدرون مكاناً، فقال: ما هذا؟! فقالوا: مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: ومكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد؟! من أدركته فيه الصلاة فليصل وإلا فليمضِ ، وهذا قاله عمر بمحضر (٨٨) من الصحابة .

ومن المعلوم ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي في أسفاره في مواضع ،وكان المؤمنون يرونه في المنام في مواضع ،وما اتخذ السلف شيئاً من ذلك مسجداً ولا مزاراً. ولو فتح هذا الباب لصار كثير من ديار المسلمين، أو اكثرها مساجد ومزارات، فإنهم لا يزالون يرون النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقد جاء الى بيوتهم، ومنهم من يراه، مراراً كثيرة، وتخليق(٨٩) هذه الأمكنة بالزعفران بدعة مكروهة.

وأما ما يزيده الكذابون على ذلك مثل ان يرى في المكان أثر قدم، فيقال: هذا قدمه، ونحو ذلك، فهذا كله كذب والأقدام الحجارة(٩٠) التي ينقلها من ينقلها ويقول إنها موضع قدمه كذب مختلق، ولو كانت حقاً لسنّ للمسلمين ان يتخذوا ذلك مسجداً ومزاراً.

---

(٨٧) المزار: يطلق على الزيارة وعلى موضعها أيضاً. والمزارات ما يزار من أماكن قبور الأنبياء والاولياء عند بعض المسليمن وقبور القديسين عند النصارى مزارات لهم.

(٨٨) بمحضر : أي بحضورهم وشهودهم. والمحضر : القوم الحاضرون.

(٨٩) تخليق المكان: تطييبه بالخَلوق.

(٩٠) الأقدام الحجارة: يراد بها ما يتوهمه بعض العوام أنها أثر قدم النبي أو الولي على قطعة الحجارة التي يحفظونها في بعض المساجد مغطاة محفوفة بالاعظام والتكريم.

[القياس على مقام إبراهيم والحجر والكعبة قياس فاسد]

بل لم يأمر الله ان يتخذ مقام نبي من الانبياء مصلى إلا مقام إبراهيم بقوله: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾[٩١]، كما أنه لم يأمر بالاستلام والتقبيل لحجر من الحجارة إلا الحجر الأسود، ولا بالصلاة إلى بيت إلا بيت الحرام، ولا يجوز ان يقاس غير ذلك عليه باتفاق المسلمين، بل ذلك بمنزلة من جعل للناس حجاً إلى غير البيت العتيق، أو صيام شهر مفروض غير شهر رمضان وأمثال ذلك.

فصخرة بيت المقدس لأ يُسَنُّ استلامها، ولا تقبيلها باتفاق المسلمين، بل ليس للصلاة عندها والدعاء خصوصية على سائر بقاع المسجد. والصلاة والدعاء في قبلة المسجد الذي بناه عمر بن الخطاب للمسلمين أفضل من الصلاة والدعاء عندها، وعمر بن الخطاب لما فتح البلد قال للكعب الأحبار[٩٢]: أين ترى ان أبني مصلى المسلمين؟ قال: ابنهِ خلف الصخرة. قال: خالطتك[٩٣] يهودية يا بن اليهودية: بل أبنيه أمامها، فإن لنا صدور المساجد[٩٤]. فبنى هذا المصلى الذي تسميه العامة «الأقصى»، ولم يتمسح بالصخرة ولا قبلها ولا صلى عندها. كيف وقد ثبت عنه في الصحيح أنه لما قبل الحجر الأسود قال: والله! اني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك لما قبلتك[٩٥]. وكان عبد الله بن عمر إذا أتى المسجد الأقصى يصلي فيه، ولا يأتي الصخرة، وكذلك غيره من

---

(٩١) سورة البقرة/ ١٢٥ والمُصَلّى: موضع الصلاة.

(٩٢) توفي فيس خلافة عثمان سنة ٣٢ هـ عن ١٤٠ سنة.

(٩٣) يقال خالطه: بمعنى: خامره وداخَلَه.

(٩٤) صدر المسجد: قبلته.

(٩٥) في الحديث إشارة إلى حسن اتباع الصحابة الكرام للنبي صلى الله عليه وسلم، وإلى شدة التزامهم بسنته في كل أمر أو نهي أو فعل لا يحيدون عنها قيد أنملة.

السلف. وكذلك حجرة نبينا صلى الله عليه وسلم، وحجرة الخليل، وغيرهما من المدافن التي فيها نبي أو رجل صالح لا يستحب تقبيلها ولا التمسح بها باتفاق الأئمة، بل منهي عن ذلك. وأما السجود لذلك فكفر، وكذلك خطابه بمثل ما يخاطب به الرب، مثل قول القائل: اغفر لي ذنوبي، وانصرني على عدوي، ونحو ذلك[٩٦]،

فصل
[النذر لغير الله والتبرك بالاشجار والأحجار والعيون[٩٧] من الشرك في الألوهية]
[وسبب للشرك في الربوبية]

وأما الاشجار والأحجار والعيون ونحوها مما ينذر لها بعض العامة ، أو يعقلون بها خرقاً ، أو غير ذلك ، أو يأخذون ورقها يتبركون به ، أو يصلون عندها ، أو نحو ذلك فهذا كله من البدع المنكرة ، وهو من عمل اهل الجاهلية ، ومن أسباب الشرك بالله تعالى ، وقد كان للمشركين شجرة يعلقون بها أسلحتهم يسمونها «ذات انواط» فقال بعض الناس : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط ، فقال : « الله أكبر[٩٩] ! قلتم : كما قال قوم موسى لموسى ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾[١٠٠]؛ انها السنن[١٠١] ، لتركبن سنن من كان قبلكم : شبراً بشبر ، وذراعا بذراع ، حتى لو ان احدهم

---

(٩٦) يريد أن من الكفر التوجه إلى الصنم بما اختص الله به من خطاب كالاستغفار والاستنصار ونحوهما.

(٩٧) العيون: جمع عين: ينبوع الماء. ومفجر ماء البئر يقال له: عين. ومصب ماء القناة يسمى عينا كذلك. ولها معان أخرى كثيرة لا علاقة لها بسياق الكلام هنا.

(٩٨) التبرّك بالشيء التيمّن والتماس البركة.

(٩٩) كبر النبي إشعاراً بعظم الطلب وإنكاراً له.

(١٠٠) الآية من سورة الأعراف/١٣٨.

(١٠١) السَّنَنُ: بفتح السين: الطريقة. يقال: استقام فلان على سَنَن واحد . وإذا كانت بالضم فهي: السُنَن: جمع سُنّة: وهي السيرة والطريقة.

دخل جحر ضب[١٠٢] لدخلتم ، وحتى لو ان احدهم جامع امرأته في الطريق لفعلتموه »[١٠٣] . وقد بلغ عمر بن الخطاب ان قوما يقصدون الصلاة عند «الشجرة » التي كانت تحتها بيعة الرضوان[١٠٤] ، التي بايع النبي صلى الله عليه وسلم الناس تحتها . فأمر بتلك الشجرة فقطعت[١٠٥] وقد اتفق علماء الدين على ان من نذر عبادة في بقعة من هذه البقاع لم يكن ذلك نذرا يجب الوفاء به ، ولا مزية للعبادة فيها .

فصل

[ليس في الاسلام بقعة تقصد للعبادة الا المساجد ومشاعر الحج]

واصل هذا الباب انه ليس في شريعة الاسلام بقعة تقصد لعبادة الله فيها بالصلاة والدعاء والذكر والقراءة ونحو ذلك الا مساجد المسلمين. ومشاعر الحج. واما المشاهد التي على القبور، سواء جعلت مساجد أو لم تجعل، او المقامات [١٠٦] التي تضاف الى بعض الانبياء أو الصالحين، أو المغارات والكهوف، أو غير ذلك، أو: مثل «الطور» الذي كلم الله عليه موسى ومثل «غار

وقوله لتركبن سَنَنَ من قبلكم: أي لتتبعن مسيرهم على طرائقهم. . وقوله: شبراً بشبر وذراعاً بذراع: أي أنكم ستتقيدون بخطواتهم لا تبارحونها شبراً ولا ذراعاً.

(١٠٢) جحر ضب: الجُحر: بضم الجيم وسكون الحاء: مكان تحتقره السباع والهوامّ لانفسها. والضب: حيوان من الزحّافات شبيه بالحرذون ، ذنبه كثير العقد. يجمع على: أضُبّ وضُبّان وضِباب ومَضَبَّة.

(١٠٣) في الحديث إشارة إلى بعض الفتن التي تصيب الأمة من جراء بعدها عن دينها، نسأل الله العافية وحسن الختام.

(١٠٤) وتسمى بيعة الشجرة قال تعالى: (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً).

(١٠٥) سداً لذريعة الفتنة وأسباب الضلال.

(١٠٦) المقامات: جمع مقام: موضع القدمين، وقد يكون بمعنى موضع الإقامة وموضع القيام، والمقصود به في كلام المصنف رحمه الله: ما يقام على أثرٍ من قبر أو ضريح يتخذه بعض الناس للقيام عنده تبركاً بالأثر أو الضريح أو المقبور.

حراء» الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحنث[١٠٧] فيه قبل نزول الوحي عليه، و «الغار» الذي ذكره الله في قوله: ﴿ثاني اثنين اذ هما في الغار﴾[١٠٨] والغار الذي بجبل قاسيون بدمشق، الذي يقال له «مغارة الدم» والمقامان اللذان بجانبيه الشرقي والغربي: يقال لاحدهما: «مقام ابراهيم» ويقال للآخر: «مقام عيسى» وما أشبه هذه البقاع والمشاهد في شرق الارض وغربها: فهذه لا يشرع السفر إليها لزيارتها، ولو نذر ناذر السفر اليها لم يجب عليه الوفاء بنذره باتفاق أئمة المسلمين؛ بل قد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة وابى سعيد - وهو يروى عن غيرهما - انه قال «لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الاقصى، ومسجدي هذا».

وقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما فتحوا هذه البلاد بلاد الشام والعراق ومصر وخراسان والمغرب وغيرها لا يقصدون هذه البقاع، ولا يزورونها، ولا يقصدون الصلاة والدعاء فيها. بل كانوا مستمسكين بشريعة نبيهم: يعمرون المساجد التي قال الله فيها: ﴿ومن أظلمُ مِمَّنْ منعَ مساجدَ اللهِ أن يُذْكَرَ فيها اسمُهُ﴾[١٠٩] وقال: ﴿إنَّما يَعْمُرُ مساجَدَ اللهِ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخر، وأقامَ الصلاةَ، وآتَى الزكاةَ ولَمْ يَخْشَ الا الله﴾[١١٠] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ ربِّي بالقسطِ، وَأقيمُوا وجوهَكُمْ عنَدَ كلِّ مسجد﴾[١١١]. وقال تعالى: ﴿وان المساجدَ للهِ، فلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أحداً﴾[١١٢]. وأمثال هذه النصوص. وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: «صلاة الرجل في المسجد تفضل على صلاته في بيته وسوقه بخمس وعشرين درجة، وذلك ان الرجل اذا

---

(١٠٧) يتحنث: مثل يتحنف بمعنى: يتعبّد الله معتزلاً الأصنام.
(١٠٨) سورة التوبة / ٤٠.
(١٠٩) سورة البقرة / ١١٤.
(١١٠) سورة التوبة / ١٨.
(١١١) الأعراف / ٢٩.
(١١٢) سورة الجن / ١٨.

توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد، لا ينهزه[113] الا الصلاة فيه: كانت خطوتاه احداهما ترفع درجة، والأخرى تحط خطيئة. فاذا جلس ينتظر الصلاة، كان في صلاة ما دام ينتظر الصلاة، فاذا قضى الصلاة فان الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في الصلاة: تقول: اللهم! اغفر له، اللهم! ارحمه».

وقد تنازع المتأخرون فيمن سافر لزيارة قبر نبي أو نحو ذلك من المشاهد. والمحققون منهم قالوا: ان هذا سفر معصية، ولا يقصر الصلاة فيه، كما لا يقصر في سفر المعصية، كما ذكر ذلك ابن عقيل وغيره، وكذلك ذكر ابو عبد الله بن بطة: ان هذا من البدع المحدثة في الاسلام. بل نفس قصد هذه البقاع للصلاة فيها والدعاء ليس له أصل في شريعة المسلمين، ولم ينقل عن السابقين الأولين ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ انهم كانوا يتحرون هذه البقاع للدعاء والصلاة؛ بل لا يقصدون الا مساجد الله، بل المساجد المبنية على غير الوجه الشرعي لا يقصدونها ايضا؛ كمسجد الضرار الذي قال الله فيه: ﴿والذينَ اتخذوا[114] مسجداً ضراراً[115] وكُفْراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً[116] لِمَنْ حاربَ اللهَ ورسولَهَ مِنْ قبل، وليَحلِفنَّ ان اردنا الا الحُسْنى، والله يشهد انهم لكاذبونَ. لا تُقُمْ فيه ابداً، لمَسْجدٌ أسِّسَ على التقوى من أول يوم أحقُّ ان تقومَ فيه، فيه رجال يحبونَ ان يتطهروا، والله يحب المطَّهّرينَ﴾[117].

[بناء المساجد على القبور والصلاة فيها محرم]

بل المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين لا تجوز الصلاة فيها،

---

(١١٣) يريد: لا يخرجه.. والنهز: النهوض للشيء.

(١١٤) اتخذوا: الضمير يعود على المنافقين.

(١١٥) الضرار: المضارّة.

(١١٦) الإرصاد: الاعداد والتهيئة. ويقال: أرصد الرقيب: أقامه يرصد.

(١١٧) سورة التوبة/ ١٠٧ ـ ١٠٨.

وبناؤ ها محرم، كما قد نص على ذلك غير واحد من الأئمة؛ لما استفاض عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحاح والسنن والمسانيد أنه قال: «ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، الا فلا تتخذوا القبور مساجد، فانى انهاكم عن ذلك» وقال في مرض موته: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما فعلوا، قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره؛ ولكن كره ان يتخذ مسجدا.

[مسجد الرسول لم يبن على حجرته]

وكانت «حجرة النبي صلى الله عليه وسلم» خارجة عن مسجده، فلما كان في إمرة الوليد بن عبد الملك كتب الى عمر بن عبد العزيز ـ عامله على المدينة النبوية ـ ان يزيد في المسجد. فاشترى حُجَر [١١٨] أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وكانت شرقي المسجد، وقبلته، فزادها في المسجد، فدخلت الحجرة اذ ذاك في المسجد، وبنوها مسنمة [١١٩] عن سمت القبلة لئلا يصلي احد اليها. [١٢٠]

وكذلك «قبر ابراهيم الخليل» لما فتح المسلمون البلاد كان عليه السور السليماني، ولا يدخل اليه أحد، ولا يصلي احد عنده بل كان مصلى المسلمين بقرية الخليل بمسجد هناك، وكان الأمر على ذلك على عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، الى ان نقب ذلك السور، ثم جعل فيه باب. ويقال: ان النصارى

---

(١١٨) حُجَر: غُرَف.

(١١٩) تسنيم القبر: خلاف تسطيحه. وقوله: مسنمة: أي ظاهرة. والسمت: الهيئة والاتجاه.

(١٢٠) فمن حينئذ دخلت الحجرة في المسجد، وذلك بعد انقضاء جيل الصحابة الكرام. إذ لم يكن بقي منهم أحد في المدينة المنورة وقد روي ان سعيد بن المسيب ـ من التابعين ـ أعلن كراهة ذلك.

هم نقبوه وجعلوه كنيسة ، ثم لما اخذ المسلمون منهم البلاد جعل ذلك مسجداً؛ ولهذا كان العلماء الصالحون من المسلمين لا يصلون في ذلك المكان. هذا اذا كان القبر صحيحاً، فكيف وعامة القبور المنسوبة الى الأنبياء كذب؟! مثل القبر الذي يقال انه «قبر نوح» فانه كذب لا ريب فيه، وانما أظهره الجهال من مدة قريبة، وكذلك قبر غيره.

فصل

[عسقلان وجبل لبنان والاسكندرية وقزوين وعبادان ثغور تقصد للرباط]

وأما «عسقلان» فانها كانت ثغرا (١٢١) من ثغور المسلمين كان صالحو المسلمين يقيمون بها لاجل الرباط (١٢٢) في سبيل الله، وهكذا سائر البقاع التي مثل هذا الجنس مثل «جبل لبنان» و «الاسكندرية» ومثل «عبادان» ونحوها بأرض العراق، ومثل «قزوين» ونحوها من البلاد التي كانت ثغوراً. فهذه كان الصالحون يقصدونها؛ لأجل الرباط في سبيل الله؛ فانه قد ثبت في صحيح مسلم عن سلمان الفارسي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: «رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطاً مات مجاهداً، واجري عليه عمله (١٢٣)، وأجري عليه رزقه من الجنة، وأمن الفتان (١٢٤)» وفي سنن أبى داود وغيره عن عثمان، عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الف يوم فيما سواه من المنازل» وقال أبو هريرة: لأن أرابط ليلة في سبيل الله احب إلي من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود(١٢٥).

---

(١٢١) الثغر: موضع المخافة من فروج البلدان، وبعبارة المصطلح العسكري المعاصر: المكان الذي يُخشى قيام العدو بعملية خرق منه.

(١٢٢) الرباط: المرابطة: وهي ملازمة ثغر العدو.

(١٢٣) أُجري عليه عمله: أي حُسِب له. والمراد إجراء ثواب العمل.

(١٢٤) أي أمِنَ الفتنة، ولعل المراد فتنة العذاب، وربما أريد بها فتنة الحياة.

(١٢٥) يشهد لقول أبي هريرة هذا: حديث: «عنيان لا تمسهما النار...»

[الرباط في سبيل الله أفضل من المجاورة بالحرمين]

ولهذا قال العلماء: ان الرباط بالثغور افضل من المجاورة بالحرمين الشريفين؛ لأن المرابطة من جنس الجهاد، والمجاورة من جنس الحج. وجنس الجهاد افضل باتفاق المسلمين من جنس الحج، كما قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الحاجِّ وَعِمَارَةَ المسجِدِ الحرامِ كَمَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وجاهِدَ في سبيلَ اللهِ؟! لا يستوُون عِندَ اللهِ، واللهُ لا يَهْدي القومَ الظالمينَ[١٢٦]. الذينَ آمنوا وهاجَروُا وجاهَدُوا في سبيل اللهِ بأموالِهِمْ وأنفسِهِمْ أعْظَمُ درجةً عندَ اللهِ، وأولئكَ هُمُ الفائزونَ. يُبشِّرهُمْ ربُّهُمْ بِرحمةٍ منهُ ورضوانٍ، وجناتٍ لَهُمْ فيها نَعيمٌ مقيمٌ[١٢٧]، خالدينَ فيها أبداً إنَّ اللهَ عِندَهُ أجرٌ عظيمٌ﴾[١٢٨]. فهذا هو الأصل في تعظيم هذه الامكنة.

[الأرض لا تقدس احداً]

ثم من هذه الامكنة ما سكنه بعد ذلك الكفار وأهل البدع والفجور. ومنها ما خرب وصار ثغرا غير هذه الامكنة. والبقاع تتغير احكامها بتغير أحوال اهلها. فقد تكون البقعةدار كفراذا كان اهلها كفاراً،ثم تصير داراسلام اذا أسلم أهلها، كما كانت مكة ـ شرفها الله ـ في أول الأمر دار كفر وحرب، وقال الله

---

(١٢٦) أخرج مسلم وأبو داود وابن جرير وغيرهم عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم. فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ـ وذلك يوم الجمعة ـ ولكن إذا صليتم الجمعة دخلت على رسول الله، فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله: (أجعلتم سقاية الحاج) إلى قوله تعالى (والله لا يهدي القوم الظالمين) (الدر المنثور/ ٣/ ٢١٨).

(١٢٧) قال الراغب: يعبّر بالإقامة عن الدوام نحو (نعيم مقيم..)

(١٢٨) التوبة/ ١٩ ـ ٢٢.

فيها: ﴿وكأينَ مِنْ قَريةٍ هيَ أشدُّ قوة مِنْ قَريتِكَ التي أخرجتك﴾[١٢٩] ثم لما فتحها النبي صلى الله عليه وسلم صارت دار اسلام، هي في نفسها أم القرى[١٣٠]، وأحب الأرض الى الله. وكذلك الأرض المقدسة كان فيها الجبارون[١٣١] الذين ذكرهم الله تعالى. كما قال تعالى: ﴿واذْ قالَ موسىٰ لقومِهِ يا قومِ اذكروا نِعْمَةَ اللهِ عليكُمْ، إذْ جَعَلَ فيكُمْ أنبياءَ، وجَعَلَكُمْ ملوكاً، وآتاكُمْ ما لَمْ يؤتِ احدا مِنَ العالمينَ، يا قومِ ادخُلُوا الأرضَ المقدَّسَةَ التي كَتَبَ اللهُ لكُمْ، ولا ترتدُّوا على أدباركُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسرينَ. قالوا: يا موسىٰ إنَّ فيهَا قوماً جبَّارينَ، وإنَّا لنْ ندْخُلهَا حتى يَخْرُجوا مِنْها، فإنْ يَخْرجُوا منهـا فانَّـا داخلُون﴾[١٣٢] الآيات، وقال تعالى لما أنجى موسى وقومه من الغرق: ﴿سأُريكُمْ دار الفاسقينَ﴾[١٣٣] وكانت تلك الديار ديار الفاسقين لما كان يسكنها اذ ذاك الفاسقون، ثم لما سكنها الصالحون صارت دار الصالحين.

وهذا أصل يجب ان يعرف. فان البلد قد تحمد أو تذم في بعض الأوقات لحال أهلها، فيتغير الحكم فيهم؛ اذ المدح والذم والثواب والعقاب انما يترتب على الايمان والعمل الصالح، أو على ضد ذلك من الكفر والفسوق والعصيان. قال الله تعالى: ﴿يا أيُّها الناسُ آتَّقوا رَبَّكُمْ الـذي خَلَقَكُمْ مِنْ نفس واحدةٍ[١٣٤]، وخَلَقَ مِنْها زوجَها، وبثَّ[١٣٥] منُهما رجالاً كثيراً ونساء، وآتقوا

---

(١٢٩) سورة محمد / ١٣.

(١٣٠) أم الشيء: أصله. ومكة أم القرى.

(١٣١) الجبار في صفة الانسان: يقال لمن يجبُرُ نقيصته بادِّعاء منزلةٍ من التعالي لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريقة الذم.

(١٣٢) المائدة / ٢٢ ـ ٢٥.

(١٣٣) الأعراف / ١٤٥.

(١٣٤) نفس واحدة: هي نفس آدم عليه السلام.

(١٣٥) بث: نَشَر.

الله الذي تساءلُونَ بهِ والأرحامَ ﴾[١٣٦] وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ، ولا لابيض على اسود ، ولا لأسود على أبيض الا بالتقوى ، الناس بنو آدم ، وآدم من تراب »[١٣٧] .

وكتب أبو الدرداء الى سلمان الفارسي ـ وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد آخى بينهما ، لما آخى بين المهاجرين والانصار ، وكان أبو الدرداء بالشام ، وسلمان بالعراق نائباً لعمر ابن الخطاب ان هلمّ[١٣٨] الى الارض المقدسة . فكتب اليه سلمان : ان الارض لا تقدس أحداً ، وإنما يقدس الرجلَ عملُه[١٣٩] .

فصل

[قصد الصلاة والعبادة عند القبور والآثار من البدع المنكرة]

وقد تبين الجواب في سائر المسائل المذكورة بان قصد الصلاة والدعاء عندما يقال انه قدم نبي، أو أثر نبي، أو قبر نبي، أو قبر بعض الصحابة، أو بعض الشيوخ، أو بعض أهل البيت، أو الابراج [١٤٠]، أو الغيران [١٤١]: من البدع المحدثة، المنكرة في الاسلام؛ لم يشرع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كان السابقون الأولون والتابعون لهم باحسان يفعلونه، ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين، بل هو من اسباب الشرك وذرائع الأفك [١٤٢].

---

(١٣٦) النساء / ١.

(١٣٧) متفق عليه

(١٣٨) هلمّ: كلمة بمعنى الدعاء إلى الشيء مثل (تعال) فتكون لازمة، وقد تستعمل متعدية نحو (هلمّ شهداءكم) أي أحضروهم. وهي من أسماء الأفعال يستوى فيها الواحد والجمع والتذكير والتأنيث.

(١٣٩) القدس: الطهر. يريد إنما يدل على طهارة الرجل وقدره عمله.

(١٤٠) هي أبراج السماء الاثنا عشر يتخذها بعض الجهلة للتكهن بالغيب والتنجيم والرجم بالباطل.

(١٤١) الغيران: جمع غار وهو الكهف.

(١٤٢) الإفك: الإثم والباطل.

والكلام على هذا مبسوط في غير هذا الجواب.

فصل

[الاستغاثة وسؤال الأموات من الشرك المنافي للتوحيد]

واما قول القائل اذاعثر :يا جاه محمد! يا للست نفيسة! أو ياسيدي الشيخ فلان! أو نحو ذلك مما فيه استغاثته وسؤاله : فهو من المحرمات، وهو من جنس الشرك، فان الميت سواء كان نبياً أو غير نبي لا يدعى ولا يسأل ولا يستغاث به لا عند قبره، ولا مع البعد من قبره، بل هذا من جنس دين النصارى الذين﴿اتَّخذُوا أحبارَهُمْ ورُهبانَهُمْ أرباباً من دون اللهِ، والمسيحَ بن مَريمَ، وما أمروا الا لِيَعبُدُوا الهاً واحداً، لا اله الا هو، سبحانَهُ عمَّا يُشرْكونَ﴾(١٤٣) ومن جنس الذين قال فيهم: ﴿قلِ ادْعُوا الذينَ زَعَمْتُمْ من دونِهِ فَلا يملِكونَ كَشْفَ الضرِّ عَنْكُمْ ولا تحويلاً، أولئكَ الذينَ يَدعونَ يبتغونَ الى ربِّهم الوسيلةَ ايُّهُمْ اقربُ، ويَرْجُونَ رَحمتَهُ ويخافونَ عذابَهُ، إنَّ عذابَ ربِّك كانَ محذوراً﴾(١٤٤) وقد قال تعالى: ﴿وما كانَ لبشَرَ أن يؤْتيَهُ اللهُ الكتابَ والحُكم وَالنبُّوةَ، ثمَّ يقولَ للناسِ كونوا عباداً لي مِنْ دون اللهِ؛ ولكنْ كونوا ربَّانيين بما كنتم تعلِّمونَ الكتابَ، وبما كنتمْ تَدْرسُونَ. ولا يأمُرَكُمْ ان تتخذوا الملائِكَةَ والنبيين أرباباً، أيأمرُكم بالكفرِ بعدَ إذ أنتُمْ مُسلمونَ ؟!﴾(١٤٥). وقد بسط هذا في غير هذا الموضع.

فصل

[نذر الزيت والشمع والذهب والفضة عند القبور نذر معصية]

وكذلك النذر للقبور أو لاحد من أهل القبور: كالنذر لابراهيم الخليل،

---

(١٤٣) التوبة / ٣١.

(١٤٤) الاسراء / ٥٦ ـ ٥٧.

(١٤٥) آل عمران / ٧٩ ـ ٨٠.

أو للشيخ فلان أو فلان، او لبعض أهل البيت، أو غيرهم: نذر معصية، لا يجب الوفاء به باتفاق أئمة الدين؛ بل ولا يجوز الوفاء به، فانه قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: «من نذر ان يطيع الله فليطعه، ومن نذر ان يعصي الله فلا يعصه» وفي السنن عنه صلى الله عليه وسلم، انه قال: «لعن الله زوارات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج» فقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من يبني على القبور المساجد، ويسرج فيها السرج: كالقناديل والشمع وغير ذلك.

[وضع قناديل الذهب والفضة والستور عند القبور اولى باللعنة من السرج]

واذا كان هذا ملعونا فالذي يضع فيها قناديل الذهب والفضة وشمعدان الذهب والفضة ويضعها عند القبور اولى باللعنة (١٤٦). فمن نذر زيتاً أو شمعاً، أو ذهبا، أو فضة، أو سترا، أو غير ذلك، ليجعل عند قبر نبي من الانبياء، أو بعض الصحابة، أو القرابة، والمشايخ: فهو نذر معصية، لا يجوز الوفاء به وهل عليه كفارة يمين؟ فيه قولان للعلماء.وان تصدق بما نذره على من يستحق ذلك من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم من الفقراء الصالحين (١٤٨) كان خيرا له عند الله وانفع له؛ فان هذا عمل صالح يثيبه الله عليه، فان الله يجزي المتصدقين، ولا يضيع اجر المحسنين. والمتصدق يتصدق لوجه الله

---

(١٤٦) لما ثبت من تحريم استعمال أواني الذهب والفضة.

(١٤٧) يشير إلى ما يعمد إليه بعضهم من تغطية القبر إشعاراً بهيبته واحترامه. ببعض الأغطية والأستار التي تشيع الرهبة والهيبة في نفس الزائر.

(١٤٨) ذلك حق.. فإن الصدقة خير يجب أن يتحرى المسلم لها المحل المستحق لها. فأما الصدقة على العصاة فربما كانت سبباً في إعانتهم على معصيتهم. ومن هنا لم يجز اعطاؤها لمن عرف بالمعصية إلا ان تكون مظنة تأليف قلبه.

ولا يطلب اجره من المخلوقين، بل من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وسيُجنَّبُها الأتْقى الذي يُؤْتي مالَهُ يتزكّى، وما لأحدٍ عندَهُ منْ نعمةٍ تُجْزى، إلاّ آبتغاءَ وجهِ ربِّهِ الأعلى، ولسوفَ يرَضْى﴾[١٤٩] وقال تعالى: ﴿ومَثَلُ الذينَ ينفقونَ اموالَهُمُ ابتغاءَ مرضاتِ اللهِ وتثبيتاً من انفسِهِمْ كَمَثَل جَنَّة بربوةٍ﴾[١٥٠] الآية، وقال عن عباده الصالحين: ﴿انَّما نطعِمُكُمْ لوجهِ اللهِ لا نُريدُ مِنْكُمُ جزاءً ولا شُكُورا﴾[١٥١].

[اذا قال أسأل كرامة لأبي بكر او لعلي او لفلان لم يعط]

ولهذا لا ينبغي لأحد ان يسأل بغير الله: مثل الذي يقول: كرامة لابى بكر، أو لعلي، أو للشيخ فلان؛ أو الشيخ فلان؛ بل لا يعطي الا من سأل بالله، وليس لأحد ان يسأل بغير الله، فان اخلاص الدين واجب في جميع العبادات البدينة والمالية: كالصلاة والصدقة، والصيام، والحج فلا يصلح الركوع والسجود الا لله، ولا الصيام الا لله، ولا الحج الا الى بيت الله، ولا الدعاء الا لله: قال تعالى: ﴿وقاتلوهُمْ حتى لا تكونَ فتنةٌ[١٥٢]، ويكونَ الدينُ[١٥٣] كلُّه لله﴾[١٥٤] وقال تعالى: ﴿وآسْألْ من أرسلنْا من قبلِكَ مِنْ رُسُلِنَا اَجعلْنا مِنْ دونِ

---

(١٤٩) سورة الليل / ١٧ - ٢١.

(١٥٠) سورة البقرة / ٢٦٥.

(١٥١) سورة الانسان / ٩.

(١٥٢) قال الراغب الأصفهاني: أصل الفَتْن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الناس النار كقوله تعالى (ألا في الفتنة سقطوا)، ويستعمل في الاختبار والبلاء. قال: والفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى ومن العبد كالبلية والمصيبة والقتل والعذاب وغير ذلك من الأفعال الكريهة. ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة، ومتى كان من الانسان بغير أمر الله يكون بضد ذلك، ولهذا يذم الله الإنسان بأنواع الفتنة في كل مكان.

(١٥٣) الدين يقال للطاعة والجزاء واستعير للشريعة، والدين كالملّة لكنه يقال اعتباراً بالطاعة والانقياد للشريعة. قال تعالى (إن الدين عند الله الإسلام).

(١٥٤) سورة الأنفال / ٣٩.

الرحمنِ آلهةً يعبَدونَ ؟ !﴾[١٥٥] وقال تعالى : ﴿تنزيلُ الكتابِ منَ اللهِ العزيز الحكيمِ ، انَّا انزلنا اليْكَ الكتابَ بالحقِّ فاعبُدِ اللهَ مخلِصاً[١٥٦] له الدين﴾[١٥٧].

[الاسلام مبني على أصلين عظيمين (١) ان لا نعبد إلا الله (٢) ان لا نعبده الا بما شرع]

وهذا هو أصل الاسلام، وهو ان لا نعبد الا الله، ولا نعبده الا بما شرع، لا نعبده بالبدع، كما قال تعالى : ﴿فَمَنْ كانَ يرجو لقاءَ ربِّه[١٥٨] فَلْيعملْ عملاً صالحاً، ولا يُشْركْ بعبادةِ ربِّه احداً﴾[١٥٩] وقال تعالى : ﴿وليَبلوكُمْ [١٦٠] ايُّكم احسنُ عملا﴾[١٦١] قال: الفضيل بن عياض: اخلصه واصوبه قالوا: يا ابا علي! ما اخلصه واصوبه؟ قال: ان العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا. والخالص ان يكون لله والصواب ان يكون على السنة والكتاب.

هذا كله لان دين الله بلغه عنه رسوله. فلا حرام الا ما حرمه الله، ولا دين

---

(١٥٥) سورة الزخرف / ٤٥.

(١٥٧) سورة الزمر/١ ـ٢ .

(١٥٦) قال الراغب: الخالص: كالصافي، إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبُه بعد أن كان فيه. والصافي قد يقال لما لا شوب فيه. قال وإخلاص المسلمين دينهم لله أنهم قد تبرأوا مما يدعيه اليهودمن التشبه والنصارى من التثليث.. فحقيقة الإخلاص : التبري عن كل ما دون الله تعالى.

(١٥٨) اللقاء مقابلة الشيء ومصادفته معاً. وملاقاة الله عز وجل عبارة عن القيامة، وعن المصير إليه سبحانه. قال الراغب: وقوله تعالى(يوم التلاق) أي يوم القيامة، وتخصيصه بذلك لالتقاء من تقدم ومن تأخر والتقاء أهل السماء والأرض وملاقاة كل أحد بعمله الذي قدّمه. قال: ويقال: لقيته بكذا أي استقبلته به. قلت فلعل المراد من الآية: من كان يأمل ويرجو أن يلقى الله مرضياً عنه فليتزود لذلك اللقاء بالعمل الصالح الخالص لوجه الله بريئاً من كل دخل وشوب وشرك.

(١٥٩) الكهف / ١١٠.

(١٦٠) ليبلوكم: ليختبركم ويمتحنكم.

(١٦١) هود / ٧، الملك / ٢.

الا ما شرعه الله. والله تعالى ذم المشركين لانهم شرعوا في الدين ما لم يأذن به الله فحرموا أشياء لم يحرمها الله: كالبحيرة[١٦٢]، والسائبة[١٦٣]، والوصيلة[١٦٤]، والحام[١٦٥]. وشرعوا دينا لم يأذن به الله. كدعاء غيره وعبادته، والرهبانية التي ابتدعها النصارى.

[الاسلام دين الرسل جميعا]

والاسلام دين الرسل كلهم أولهم وآخرهم، وكلهم بعثوا بالاسلام كما قال نوح عليه السلام: ﴿يا قوم ان كان كبرَ[١٦٦] عليكُمْ مَقامي وتذكيري بايات اللهِ فعلىَ اللهِ توكلتُ، فأجمَعُوا أَمرَكُمْ[١٦٧] وشُركاءَكُمْ، ثم لا يَكُنْ امرُكُمْ عليَكُمْ غُمَّةً[١٦٨]، ثم اقضُوا اليَّ ولا تنظرونِ[١٦٩]، فانْ تولَّيْتُمْ[١٧٠] فما سألْتُكُمْ من أجرٍ، ان اجريَ الا على اللهِ، وأُمِرتُ أن أكونَ مِنَ المسلمين﴾[١٧١]

---

(١٦٢) البحيرة: يقال: بحَرَ أذُنَ الناقة إذا شقّها. والبحيرة الناقة التي كانوا في الجاهلية إذا ولدت عشرة أبطن يشقون أذنها فيسيبونها فلا تُركبُ ولا تُحمل. وقيل هي ابنة السائبة وحكمها حكم أمها.

(١٦٣) أما السائبة: فهي الناقة التي كانت تُسيَّب في الجاهلية لنذر أو نحوه. وقيل هي أم البحيرة. كانت الناقة إذا ولدت عشرة أبطن كلهن إناث (سُيبَّتْ) فلم تُركب ولم يشرب لبنها إلا ولدها والضيف حتى تموت. فإذا ماتت أكلها الرجال والنساء جميعاً وبُحرت (شقت) أذن بنتها الأخيرة فتسمى البحيرة وهي بمنزلة أمها في أنها (سائبة).

(١٦٤) والوصيلة التي كانت في الجاهلية: هي الشاة، تلد سبعة أبطن عَنَاقين عناقين، فإن ولدت في الثامنة جدياً ذبحوه لآلهتهم، وإن ولدت جدياً وعناقاً قالوا: وصلت أخاها، فلا يذبحون أخاها من أجلها، ولا تشرب النساء لبنها. وتجري مجرى الناقة السائبة.

(١٦٥): (الحامي): الفحل من الإبل الذي طال مكثه. وقيل: هو الفحل إذا ضرب عشرة أبطن كان يقال: حمي ظهره فلا يُركب. وقال الفراء: إذ لَقِحَ ولدُ ولدِه فقد حمي ظهره فلا يُركب ولا يجزّ له وبر ولا يمنع من مرعى.

قال تعالى: (ما جعل الله من بَحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولاحامٍ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) [المائدة: ١٠٣]

(١٦٦) كبُر: عظُم وهي هنا بمعنى: صعب وشق عليكم.

(١٦٧) الجمع: ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض. وأجمعتُ كذا: أكثر ما يقال، فيما يكون جمعاً يتوصل إليه بالفكرة. ويقال أجمع القوم على كذا اذا اجتمعت آراؤهم عليه.

وقال تعالى: ﴿ومن يرغبُ[١٧٢] عن ملة ابراهيم الا من سَفِه نَفسَه[١٧٣]، ولَقَدِ اصطفيناه[١٧٤] في الدنيا، وانهُ في الآخرةِ لِمَنَ الصالحينَ. إذْ قالَ لهُ ربُّه: اسلِمْ، قال: أسلَمْتُ لربِّ العالمينَ[١٧٥]. ووصّىٰ بها[١٧٦] ابراهيمُ بنيهِ ويعقوبَ، يا بَنِّيي ان اللهَ اصطفى لكمُ الدينَ، فلا تموتنَّ الا وانتم مسلمون﴾[١٧٧] وقال تعالى: ﴿وقالَ موسى لقومهِ: يا قومِ انْ كنتمْ آمنتمْ باللهِ فعليهِ توكلوا ان كنتمْ مسلمين﴾[١٧٨] وقال تعالى: ﴿واذ أوحيتُ الى الحواريين[١٧٩] أنْ آمِنوا بي وبرسولي، قالوا: آمنَّا، واشهدْ بأنَّنا مسلمون﴾[١٨٠].

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: «انا معاشرالانبياء ديننا واحد» فدين الرسل كلهم دين واحد، وهو دين الاسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له بما أمر به وشرعه كما قال: ﴿شَرَعَ[١٨١] لكُمْ مِنَ الدينِ ما وصى به نوحاً والذي أوَحْينا اليكَ، وما وَصَّينْا به إبراهيمَ، وموسى،

---

(١٦٨) الغُمَّة: الكُربة. يقال: غَمٌّ وغُمَّة أي كرب وكربة. والغمّ: ستر الشيء، ومنه: الغمام، لكونه ساتراً لضوء الشمس.

(١٦٩) القضاء الحكم والجمع والفصل في الأمر. قال الفراء: قوله تعالى: (ثم اقضوا إليَّ) يعني: امضوا إلي، كما يقال قضى فلان أي مات ومضى. وقوله: ولا تنظرون: أي لا تمهلوني.

(١٧٠) توليتم: أعرضتم.

(١٧١) سورة يونس / ٧١ ـ ٧٢.

(١٧٢) يقال: رغب فيه: أراده. ورغب عنه: اذا لم يرده.

(١٧٣) السفه: ضد الحلم. وسفه نفسه: أي سفه نفساً. وقال الكسائي يعني: سفّه نفسه.

(١٧٤) اصطفيناه: اخترناه واجتبيناه.

(١٧٥) قال الراغب: الاسلام في الشرع على ضربين: أحدهما دون الإيمان وهو الاعتراف باللسان وبه يحقن الدم، حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل كقوله تعالى (ولكن قولوا أسلمنا) والثاني فوق الإيمان؛ وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل واستسلام لله في جميع ما قضى وقدر كما جاء عن ابراهيم في قوله تعالى (إذ قال له ربه أسلم).

(١٧٦) ووصى بها: الضمير في (ها) يعود على الملة. ملة ابراهيم ـ الإسلام لله.

(١٧٧) سورة البقرة / ١٣٠ ـ ١٣٢.

وعيسى: ان اقيموا الدينَ[١٨٢]، ولا تَتفَرقوا فيه[١٨٣]، كبُرَ على المشركينَ ما تدعوهم اليه﴾[١٨٤] وانما يتنوع في هذا الدين الشرعة والمنهاج، كما قال: ﴿لكل جَعْلنا منكُمْ شِرعَةومنهاجاً﴾[١٨٥]، كما تتنوع شريعة الرسول الواحد. فقد كان الله أمر محمداً صلى الله عليه وسلم في أول الاسلام ان يصلي الى بيت المقدس، ثم أمره في السنة الثانية من الهجرة ان يصلي الى الكعبة البيت الحرام، وهذا في وقته كان من دين الاسلام، وكذلك شريعة التوراة في وقتها كانت من دين الاسلام، وشريعة الانجيل في وقته كانت من دين الاسلام، ومن آمن بالتوراة ثم كذب بالانجيل خرج من دين الاسلام وكان كافرا، وكذلك من آمن بالكتابين المتقدمين وكذب بالقرآن كان كافرا خارجا من دين الاسلام، فان دين الاسلام يتضمن الايمان بجميع الكتب وجميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿قولوا آمنا باللهِ وما أُنْزِلَ الَيْنَا، وما أنزل الى ابراهيمَ واسماعيلَ واسحاقَ ويعقوبَ والاسباطِ، وماَ أوتيَ موسى وعيسى، وما أوتيَ النبيُّونَ من ربِّهم لا نفرِّقُ بينَ أحد منهُمْ[١٨٦]، ونحن له مسلِمونَ﴾[١٨٧]. الآية.

---

(١٧٨) يونس / ٨٤.

(١٧٩) الحواريون: أنصار عيسى عليه السلام، قيل: كانوا قصّارين وقيل كانوا صيادين. وقال بعض العلماء إنما سموا حواريين لأنهم كانوايطهّرون نفوس الناس بإفادتهم الدين والعلم. وقوله صلى الله عليه وسلم: لكل نبي حواريٌّ وحواريّ الزبير: تشبيه بهم في النصرة حيث قال تعالى: (من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون نحن أنصار الله).

(١٨٠) المائدة /١١١.

(١٨١) الشرع: نهج الطريق الواضحُ. يقال: شرعت له طريقاً. والشرع مصدر ثم جعل اسماً للطريق النهج، فقيل له: شِرْع وشَرع وشريعة، واستعير ذلك للطريقة الإلّهية.

(١٨٢) أقيموا الدين: حافظوا عليه. ووفّوه حقه بالعلم والعمل.

(١٨٣) أي لا تختلفوا فيه فرقاً وشِيَعاً كما اختلفت اليهود والنصارى فضلوا وأضلوا.

(١٨٤) سورة الشورى / ١٣.

(١٨٥) سورة المائدة / ٤٨.

(١٨٦) لا نفرق بين أحد منهم: يعني أن موقف المسلم من أنبياء الله جميعاً يتسم بالإيمان بهم والتصديق بما جاؤوا به من عند الله عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

(١٨٧) سورة البقرة / ١٣٦.

المسألة الخامسة

فصل

[ليس من متابعة الأنبياء الصلاة في الموضع الذي مروا به او نزلوا فيه او سكنوه]

وأما قصد الصلاة والدعاء والعبادة في مكان لم يقصد الانبياء فيه الصلاة والعبادة، بل روي انهم مروا به ونزلوا فيه او سكنوه: فهذا كما تقدم لم يكن ابن عمر ولا غيره يفعله؛ فانه ليس فيه متابعتهم، لا في عمل عملوه، ولا قصد قصدوه، ومعلوم ان الامكنة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يحل فيها: اما في سفره، واما في مقامه: مثل طُرُقه في حجه وغزواته، ومنازله في اسفاره، ومثل بيوته التي كان يسكنها والبيوت التي كان يأتي اليها أحيانا من [1] «فلا تتخذوا القبور مساجد فانى أنهاكم عن ذلك».

فهذه نصوصه الصريحة توجب تحريم اتخاذ قبورهم مساجد مع انهم مدفونون فيها، وهم أحياء في قبورهم، ويستحب اتيان قبورهم للسلام عليهم، ومع هذا يحرم اتيانها للصلاة عندها واتخاذها مساجد.

[سر النهي عن هذا لأنه من وسائل الشرك]

ومعلوم ان هذا انما نهى عنه لانه ذريعة الى الشرك، وأراد ان تكون المساجد خالصة لله تعالى تبنى لاجل عبادته فقط لا يشركه في ذلك مخلوق، فإذا بنى المسجد لاجل ميت كان حراما، فكذلك اذا كان لأثر آخر، فان الشرك في الموضعين حاصل.

---

(١) بياض بالأصل

ولهذا كان النصارى يبنون الكنائس على قبر النبي والرجل الصالح وعلى أثره وباسمه. وهذا الذي خاف عمر رضي الله عنه ان يقع فيه المسلمون وهو الذي قصد النبي صلى الله عليه وسلم منع أمته منه، كما قال تعالى: ﴿وانَّ المساجدَ للهِ فلا تدعوا مَعَ اللهِ احداً﴾[٢] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بالقسطَ وأقيموُا وجوهَكُمْ[٣] عندَ كلِّ مسجدٍ، وآدعوهُ مخلصينَ له الدينَ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿ما كانَ للمشركينَ أنْ يَعْمُروا مساجدَ اللهِ شاهدينَ على أنفسِهِمْ بالكفر، أولئك حَبطَتْ أعمالُهم[٥] وفي النارِ هُمْ خالدونَ، انما يَعْمُر مساجدَ اللهِ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ، وأقامَ الصلاةَ، وآتى الزكاةَ ولمْ يخشَ إلا اللهَ فعسىٰ اولئكَ أنْ يكونوا من المهتدينَ﴾[٥].

ولو كان هذا مستحباً لكان يستحب للصحابة والتابعين أن يصلوا في جميع حُجَر أزواجه وفي كل مكان نزل فيه في غزواته أو أسفاره. ولكان يستحب ان يبنوا هناك مساجد، ولم يفعل السلف شيئا من ذلك.

ولم يشرع الله تعالى للمسلمين مكانا يقصد إلا المسجد ولا مكانا يقصد للعبادة الا المشاعر. فمشاعر الحج كعرفة ومزدلفة ومنى تقصد للذكر والدعاء

---

(٢) سورة الجن/١٨. فإذا كان الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر في أي زمان أو مكان، فما أحرى بيوت الله أن تكون نقية طاهرة من أي مظهر من مظاهر الشرك بالله تعالى.

(٣) العرب تعبر بالوجه عن الذات لأنه أكرم ما في الإنسان، وقيل في الآية: أراد بالوجه الجارحة واستعارها كقولك فعلت كذا بيد، وقيل أراد بالإقامة تحرّي الاستقامة وبالوجه التوجه والمعنى: أخلصوا العبادة لله في الصلاة.

(٤) الأعراف/ ٢٩

(٥) حبْطُ العمل على أضرب: أحدها أن تكون الأعمال دنيوية فلا تغني في القيامة غناءً، والثاني ان تكون أعمالاً أخروية لكن لم يقصد بها صاحبها وجه الله تعالى. والثالث أن تكون أعمالاً صالحة ولكن بإزائها سيئات توفي عليها وذلك هو المشار إليه بخفة الميزان. وأصل الحبْط من الحبَط وهو أن تكثر الدابة الأكل حتى ينتفخ بطنها ولا يخرج عنها ما فيها. فاستعير لبطلان ثواب العمل.

(٦) التوبة/ ١٧ ـ ١٨

والتكبير، لا الصلاة، بخلاف المساجد، فانها هي التي تقصد للصلاة، وما ثم[٧] مكان يقصد بعينه الا المساجد والمشاعر[٨] وفيها الصلاة والنسك، قال تعالى: ﴿قُلْ ان صَلاتي ونُسُكي ومحيايَ ومماتي للهِ ربِّ العالمينَ. لا شريكَ له وبذلك أُمِرْتُ﴾[٩] وما سوى ذلك من البقاع فانه لا يستحب قصد بقعة بعينها للصلاة، والدعاء، ولا الذكر اذ لم يأت في شرع الله ورسوله قصدها لذلك، وان كان مسكنا لنبي او منزلا او ممراً.

فان الدين أصله متابعة النبي صلى الله عليه وسلم وموافقته بفعل ما امرنا به وشرعه لنا وسنه لنا، ونقتدي به في أفعاله التي شرع لنا الاقتداء به فيها، بخلاف ما كان من خصائصه.

فأما الفعل الذي لم يشرعه هو لنا ولا أمرنا به ولا فعله فعلا سن لنا ان نتأسى به فيه، فهذا ليس من العبادات والقرب[١٠]، فاتخاذ هذا قربة مخالفة له صلى الله عليه وسلم[١١] وما فَعَله مباحاً[١٢]؛ ولكن هل يشرع لنا ان نجعله عبادة وقربة؟ فيه قولان، كما تقدم. وأكثر السلف والعلماء على أنا لا نجعله عبادة وقربة، بل نتبعه فيه؛ فان فعله مباحا فعلناه مباحاً، وان فعله قربة فعلناه قربة. ومن جعله عبادة رأى ان ذلك من تمام التأسي به والتشبه به، ورأى أن في ذلك بركة لكونه مختصاً به نوع اختصاص.

---

(٧) ثَم: بفتح الثاء بمعنى هناك وهو للبعيد بمنزلة هنا للقريب.

(٨) النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يصل بمسجد بمكة إلا المسجد الحرام ولم يقصد بقعة غير المشاعر، وكل مسجد بمكة وما حولها فهو محدث وكذلك الأبنية الموجودة في المشاعر.

(٩) الأنعام / ١٦٢.

(١٠) القُربة تجمع على قَرَب وقربات: ما يتقرب به إلى الله تعالى من أفعال البر والطاعة.

(١١) وقال المصنف رحمه الله: ومن تعبد بعبادة لم يشرعها الله وليست واجبة ولا مستحبة فهو مبتدع.

(١٢) الضمير في (فَعَلَه) يعود على النبي (صلى الله عليه وسلم). ومباحاً: حال من فعله.

المسألة السادسة

فصل

[التغليظ في بناء المساجد على القبور]

وهذا كاف لو لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من النهي ما يدل على النهي عن ذلك كيف وسنته المتواترة تدل على النهي عن ذلك. مثلما في الصحيحين عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي لم يقم منه: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ولولا ذلك أبرز قبره؛ غير انه خَشيَ، ـ أو خُشيَ ـ ان يتخذ مسجداً. وهذا بعض الفاظ البخاري، وفي الصحيحين ايضاً عن عائشة قالت: لما كان مرضِ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذكر بعض نسائه كنيسة رأينها بأرض الحبشة. يقال لها «مارية» وذكرن من حسنها، وتصاوير فيها، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه وقال: «إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله».

وهذا المعنى مستفيض عنه في الصحاح والسنن والمسانيد من غير وجه. وفي صحيح مسلم عن جندب: ان النبي صلى الله عليه وسلم قال قبل ان يموت بخمس: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور ـ أو قال ـ قبور أنبيائهم

---

(١) قال الراغب الاصفهاني: الخُلَّة المودة، إما لأنها تتخلل النفس أي تتوسطها، وإما لأنها تُخِلُّ النفس فتؤثر فيها تأثير السهم في الرمية، وإما لفرط الحاجة إليها، يقال منه: خاللتُه مخالّةً وخلالاً فهو خليل، وقوله تعالى ﴿واتخذ الله ابراهيم خليلاً﴾ قيل سماه بذلك لافتقاره إليه سبحانه في كل حال. قال أبو القاسم البلخي: بل هو من الخَلة لا من الخُلة.

مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك» وفيه: «لو كنت متخذاً من أهل الارض خليلا، لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن صاحبكم خليل الله» وهذا المعنى في الصحيحين من وجوه، وفيه: «لا يبقين في المسجد خوخة[٢] إلا سدت؛ إلا خوخة أبي بكر» بين هذين الأمرين اللذين تواترا عنه، وجمع بينهما قبل موته بخمسة أيام: من ذكر فضل أبي بكر الصديق، ومن نهيه عن اتخاذ القبور مساجد فيها حسم مادة الشرك التي أفسد بها الدين، وظهر بها دين المشركين. فان الله قال في كتابه عن قوم نوح: ﴿وقالوا لا تذَرُنَّ آلهتَكُمْ، ولا تذرُنَّ وُداً ولا سُواعا. ولا يغوثَ ويعَوقَ ونَسْراً، وقد أضلُّوا كثيراً﴾[٣].

وقد روى البخاري في صحيحه باسناده عن ابن عباس قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب تعبد؛ أما (ود): فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما (سواع): فكانت لهذيل، وأما (يغوث): فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما (يعوق): فكانت لهمدان، وأما (نسر): فكانت لحمير لآل ذي الكلاع؛ وكانت أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا: أوحى الشيطان الى قومهم: أن انصبوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت.

وقد ذكر قريباً من هذا المعنى طوائف من السلف، في «كتب التفسير». و«قصص الأنبياء» وغيرها: أن هؤلاء كانوا قوما صالحين. ثم منهم من ذكر أنهم كانوا يعكفون على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ومنهم من ذكر أنهم كانوا يصحبون تماثيلهم معهم في السفر يدعون عندها، ولا يعبدونها، ثم بعد ذلك: عبدت الأوثان.

ولهذا: جمع النبي صلى الله عليه وسلم: بين القبور والصور؛ في غير

---

(٣) سورة نوح /٢٣.

(٢) الخَوخَة: كوَّة في الجدار تؤدي الضوءَ.

حديث، كما في صحيح مسلم، عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ «أمرني أن لا أدع قبراً مشرفا إلا سويته، ولا تمثالا الا طمسته». فأمره بمحو الصور، وتسوية القبور، كما قال في الحديث الآخر الصحيح: «إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة».

والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في النهي عن اتخاذ القبور مساجد، والصلاة في المقبرة: كثيرة جداً، مثل ما في الصحيحين والسنن، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وعن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، ومن يتخذ القبور مساجد» رواه أحمد في المسند، وأبو حاتم بن حبان في صحيحه. وعن ابن عباس قال: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوارات القبور. والمتخذين عليها المساجد والسرج». رواه أحمد في المسند وأهل السنن الأربعة وأبو حاتم ابن حبان في صحيحه.

وروى أيضا في صحيحه عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لعن الله من اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً». وفي صحيح مسلم عن ابي مرثد الغنوي: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تصلوا الى القبور ولا تجلسوا عليها». وعن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن: «الصلاة في المقبرة» رواه أبو حاتم في صحيحه، وروى ايضا عن أنس: «ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلى بين القبور» وعن أبي سعيد ان النبي صلى الله عليه

وسلم قال: «الارض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام» رواه أحمد وأهل الكتب الأربعة، وابن حبان في صحيحه. وقال الترمذي: فيه اضطراب؛ لأن سفيان الثوري أرسله؛ لكن غير الترمذي جزم بصحته، لأن غيره من الثقات أسندوه وقد صححه ابن حزم أيضاً. وفي سنن ابي داود عن علي قال: «إن خليلي نهاني أن أصلي في المقبرة، ونهاني أن أصلي في أرض بابل»[٤]. والآثار في ذلك كثيرة جداً.

[النهي عن الصلاة في المقبرة ليس معللا بنجاسة الصديد]

وقد ظن طائفة من أهل العلم ان الصلاة في المقبرة نهى عنها من أجل النجاسة؛ لأختلاط تربتها بصديد الموتى، ولحومهم، وهؤلاء قد يفرقون بين المقبرة الجديدة والقديمة، وبين أن يكون هناك حائل أو لا يكون. والتعليل بهذا ليس مذكوراً في الحديث ولم يدل عليه الحديث لا نصا ولا ظاهراً، وإنما هي علة ظنوها، والعلة الصحيحة عند غيرهم ما ذكره غير واحد من العلماء من السلف والخلف في زمن مالك والشافعي وأحمد وغيرهم: إنما هو ما في ذلك من التشبه بالمشركين، وأن تصير ذريعة إلى الشرك؛ ولهذا نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد. وقال: «إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك التصاوير». وقال: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد» ونهى عن الصلاة اليها.

ومعلوم أن النهي لو لم يكن إلا لأجل النجاسة. فمقابر الأنبياء لاتنتن، بل الأنبياء لا يبلون[٥]، وتراب قبورهم طاهر، والنجاسة أمام المصلي لا تبطل صلاته، والذين كانوا يتخذون القبور مساجد كانوا يفرشون عند القبور المفارش

---

(٤) بابل: اسم موضع بالعراق ينسب إليه السِحْر والخمر.

(٥) راجع حديث أبي داود في أول المسألة الأولى من هذا الكتاب.

الطاهرة فلا يلاقون النجاسة، ومع ان الذين يعللون بالنجاسة لا ينفون هذه العلة؛ بل قد ذكر الشافعي وغيره النهي عن اتخاذ المساجد على القبور، وعلل ذلك بخشية التشبه بذلك. وقد نص على النهي عن بناء المساجد على القبور غير واحد من علماء المذاهب؛ من أصحاب مالك والشافعي وأحمد، ومن فقهاء الكوفة ايضاً، وصرح غير واحد منهم بتحريم ذلك، وهذا لا ريب فيه بعد لعن النبي صلى الله عليه وسلم ومبالغته في النهي عن ذلك.

«واتخاذها مساجد» يتناول شيئين: أن يبنى عليها مسجد، أو يصلى عندها من غير بناء، وهو الذي خافه هو، وخافته الصحابة إذا دفنوه بارزاً: خافوا أن يصلى عنده فيتخذ قبره مسجداً. وفي موطأ مالك عنه أنه قال: «اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد» روى ذلك مسنداً ومرسلاً وفي سنن أبي داود أنه قال: «لا تتخذوا قبري عيداً. وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني».

المسألة السابعة

سئل رحمه الله تعالى

عمن «يزور القبور، ويستنجد بالمقبور» في مرض به أو بفرسه أو بعيره[1]: يطلب ازالة المرض الذي بهم، ويقول: يا سيدي! أنا في جيرتك، انا في حسبك، فلان ظلمني، فلان قصد أذيتي، ويقول: إن المقبور يكون واسطة بينه وبين الله تعالى؟ وفيمن ينذر للمساجد، والزوايا والمشايخ- حيهم وميتهم - بالدراهم والابل والغنم والشمع والزيت وغير ذلك، يقول: ان سلم ولدي فللشيخ علي كذا وكذا، وأمثال ذلك. وفيمن يستغيث بشيخه يطلب تثبيت قلبه من ذاك الواقع؟ وفيمن يجيء الى شيخه ويستلم القبر ويمرغ[2] وجهه عليه، ويمسح القبر بيديه، ويمسح بهما وجهه، وأمثال ذلك؟ وفيمن يقصده بحاجته، ويقول: يا فلان! ببركتك، أو يقول: قضيت حاجتي ببركة الله وبركة الشيخ؟ وفيمن يعمل السماع ويجيء الى القبر فيكشف ويحط وجهه بين يدي شيخه على الأرض ساجداً. وفيمن قال: ان ثم قطباً غوثا جامعا في الوجود؟ أفتونا مأجورين، وابسطوا القول في ذلك.

[الغاية التي بعثت لها الرسل ونزلت الكتب]

فأجاب: الحمد لله رب العالمين. الدين الذي بعث الله به رسله وأنزل به

---

(١) أي أن الزائر يستشفي لنفسه أو لفرسه أو بعيره بالقبر المزار أو بساكنه.

(٢) يقال: مرَّغه في التراب تمريغاً فتمرَّغ أي معَّكه فتمعَّكَ. والموضع متمرَّغ ومَراغ ومَراغة. والمراد التمسح بمِذلة ورجاء.

كتبه هو عبادة الله وحده لا شريك له، واستعانته، والتوكل عليه، ودعاؤه لجلب المنافع، ودفع المضار، كما قال تعالى: ﴿تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ الحكيمِ، انا أنزلنا اليكَ الكتابَ بالحقِّ، فاعبد اللهَ مخلصًا لهُ الدين، الاَ للهِ الدينُ الخالصُ[٣]. والذينَ اتخذوا من دونهِ أولياءَ ما نعبدُهم الا ليقرِّبونا الى الله زُلفى، ان اللهَ يَحْكُمْ بَينهَمْ فيما هُمْ فيه يختلفونَ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وأن المساجدَ للهِ، فلا تدْعوا مع الله أحداً﴾[٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ: أمَرَ رَبِّي بالقسطِ، وأقيموُا وجوهَكُمْ عندَ كُل مسجدٍ، وادْعوهُ مخلصينَ له الدين﴾[٦] وقال تعالى: ﴿قُلْ: ادعوا الذينَ زَعَمْتُمْ من دونهِ فلا يملِكونَ كَشْفَ الضُّرِّ عنكمْ ولا تحويلا. أولئك الذينَ يدعونَ يبتغونَ الى ربِّهم الوسيلةَ أيُّهمْ أقربُ، ويرجونَ رحمتَهُ، ويخافونَ عذابَهُ؛ إنَّ عذابَ ربِّكَ كانَ محذوراً﴾[٧] قالت طائفة من السلف: كان أقوام يدعون المسيح وعزيرا، والملائكة، قال الله تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم عبادي كما انتم عبادي، ويرجون رحمتي كما ترجون رحمتي، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي، ويتقربون الي كما تتقربون إلي. فاذا كان هذا حال من يدعو الأنبياء والملائكة فكيف بمن دونهم؟.

وقال تعالى: ﴿افَحَسِبَ الذينَ كَفَرُوا ان يتَّخِذُوا عبادِيَ مِنْ دوني اولياءَ[٨]؟ إنَّا

---

(٣) الدين يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشريعة، والدين كالّملة لكنه يقال اعتباراً بالطاعة والانقياد للشريعة. والخالص كالصافي إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبه. فإخلاص المسلمين دينهم لله أنهم قد تبرأوا مما يدعيه اليهود من التشبيه والنصارى من التثليث. فحقيقة الإخلاص: التبري عن كل ما دون الله تعالى.

(٤) سورة الزمر / ١ - ٣.

(٥) سورة الجن / ١٨.

(٦) سورة الاعراف / ٢٩.

(٧) سورة الاسراء / ٥٦ - ٥٧.

(٨) الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد. =

اعتدْنا جهنَّم للكافرين نزلا﴾[٩] وقال تعالى: (قلِ ادعُوا الذين زعمْتُمْ من دونِ اللهِ لا يَملكونَ مثقالَ ذرةٍ في السمواتِ ولا في الارضِ، وما لَهمْ فيهما من شركَ، وما له منهم من ظهير[١٠]. ولا تنفَع الشفاعةَ[١١] عنده الا لمنْ اذِنَ لهُ﴾[١٢]. فبين سبحانه ان من دعي من دون الله من جميع المخلوقات من الملائكة والبشر وغيرهم انهم لا يملكون مثقال ذرة في ملكه. وانه ليس له شريك في ملكه، بل هو سبحانه له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وانه ليس له عون يعاونه كما يكون للملك اعوان وظهراء، وان الشفعاء عنده لا يشفعون الا لمن ارتضى، فنفى بذلك وجوه الشرك.

وذلك أن من يدعون من دونه! إما ان يكون مالكا، وإما ان لا يكون مالكا واذا لم يكن مالكا فاما ان يكون شريكا، واما ان لا يكون شريكا، واذا لم يكن شريكا فاما ان يكون معاوناً واما ان يكون سائلا طالباً، فالاقسام الأول الثلاثة وهي: الملك، والشركة والمعاونة منتفية، واما الرابع فلا يكون الا من بعد اذنه، كما قال تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه﴾[١٣]وكما قال تعالى: ﴿وكمْ من مَلَكٍ في السمواتِ لا تغني شفاعتُهم شيئاً الا مِنْ بعدِ ان يأذَنَ اللهُ لمنْ

=والولاية: النصرة والولاية تولي الأمر. والولي والمولى يستعملان في ذلك كل واحد منهما يقال في معنى الفاعل أي الموالي وفي معنى المفعول أي الموالى.

(٩) سورة الكهف/١٠٢.

وجعل بين الكافرين والشياطين موالاة في الدنيا ونفى بينهم الموالاة في الآخرة. قال تعالى: (هنالك الولاية لله الحق).

(١٠) الظهير: المعين.

(١١) الشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حُرمة ومرتبة إلى من هو أدنى. فقوله تعالى (ولا تنفع الشفاعة..) أي لا ينفع الكافرين والمشركين استشفاعهم.

(١٢) سورة سبأ/٢٢ ـ ٢٣.

(١٣) سورة البقرة/٢٢٥.

يشاء ويرضى﴾[١٤] وقال تعالى: ﴿ام اتخذوا من دون الله شفعاء، قلْ أوَلوْ كانوا لا يملكونَ شيئاً ولا يعقِلونَ ؟! قل: للهِ الشفاعةُ جميعاً له ملكُ السمواتِ والارض﴾[١٥] وقال تعالى: ﴿اللهُ الذي خلق السمواتِ والارض وما بينهما في ستة ايام ثم استوى على العرش، مالكمْ من دونِهِ من وليٍّ ولا شفيَع، أفلا تتذكرون﴾[١٦] وقال تعالى ﴿وأنذِرْ به الذين يخافونَ أن يُحشروا إلى ربِّهم ليس لهم من دونِـه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون﴾[١٧] وقال تعالى: ﴿ما كان لبشر ان يؤتَيهُ الله الكتَابَ والحُكمَ والنبوةَ ثم يقولُ للناسِ كونوا عباداً لي من دونِ اللهِ، ولكن كونوا ربَّانيين بما كنتمْ تعلِّمون الكتابَ، وبما كنتم تَدْرسون. ولا يأمركُمْ ان تتخذوا الملائكَةَ والنبيينَ أرباباً، أيأمركم بالكفر بعد اذا انتم مسلمون﴾[١٨] فاذا جعل من اتخذ الملائكة والنبيين أربابا كافراً فكيف من اتخذ من دونهم من المشايخ وغيرهم أربابا؟!

[ما لا يقدر عليه الا الله لا يطلب الا منه]

وتفصيل القول: أن مطلوب العبد ان كان من الأمور التي لا يقدر عليها الا الله تعالى: مثل ان يطلب شفاء مريضه من الآدميين والبهائم او وفاء دينه من غير جهة معينة، او عافية أهله، وما به من بلاء الدنيا والآخرة، وانتصاره على عدوه، وهداية قلبه، وغفران ذنبه، او دخوله الجنة، او نجاته من النار، او ان يتعلم العلم والقرآن، او ان يصلح قلبه ويحسن خلقه ويزكي نفسه، وامثال ذلك: فهذه الامور كلها لا يجوز ان.تطلب الا من الله تعالى، ولا يجوز ان يقول

---

(١٤) سورة النجم / ٢٦.
(١٥) الزمر / ٤٣ - ٤٤.
(١٦) السجدة / ٤.
(١٧) الأنعام / ٥١.
(١٨) آل عمران/ ٧٩ - ٨٠.

لملك ولا نبي ولا شيخ- سواء كان حياً او ميتاً- اغفر ذنبي، ولا انصرني على عدوي، ولا اشف مريضي، ولا عافني أو عاف أهلي أو دابتي، وما أشبه ذلك. ومن سأل ذلك مخلوقا كائناً من كان فهو مشرك بربه، من جنس المشركين الذين يعبدون الملائكة والأنبياء والتماثيل التي يصورونها على صورهم، ومن جنس دعاء النصارى للمسيح وأمه، قال الله تعالى: ﴿واذ قالَ الله يا عيسى بنَ مريمَ أأنتَ قلتَ للناس اتخذوني وأمِّيَ الهين من دونِ الله﴾[19] الآية، وقال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهَم ورهبانَهم أرباباً من دونَ اللهِ والمسيحَ بنَ مريمَ، وما أُمِروا الا ليعبدوا إلٰها واحداً، لا إله الا هو سبحانه عما يشركون﴾[20].

[ما يقدر عليه العبد يجوز طلبه منه في بعض الأحوال]

وأما ما يقدر عليه العبد فيجوز أن يطلب منه في بعض الأحوال دون بعض؛ فان «مسألة المخلوق» قد تكون جائزة، وقد تكون منهياً عنها قال تعالى: ﴿فاذا فرغتَ فانصبْ والى رَبك فارغبْ﴾[21] وأوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ابن عباس: «اذا سألت فاسأل الله، واذا استعنت فاستعن بالله» وأوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم طائفة من أصحابه: أن لا يسألوا الناس شيئا، فكان سوط أحدهم يسقط من كفه فلا يقول لاحد ناولني إياه، وثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب، وهم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون[22]، ولا يتطيرون[23]، وعلى ربهم يتوكلون» والاسترقاء طلب الرقية، وهو من انواع الدعاء، ومع هذا

---

(١٩) المائدة / ٦.
(٢٠) التوبة / ٣١.
(٢١) الانشراح / ٧ - ٨.
(٢٢) يقال: اكتوى الرجلُ: أي كوى نفسه أكتواءً.
(٢٣) لا يتطيرون: أي لا يتشاءمون. لأن الطيرة من الشرك.

فقد ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما من رجل يدعو له أخوه بظهر الغيب دعوة الا وكل الله بها ملكا كلما دعا لاخيه دعوة قال الملك: ولك مثل ذلك» ومن المشروع في الدعاء دعاء غائب لغائب، ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالصلاة عليه، وطلبنا الوسيلة له، وأخبر بما لنا في ذلك من الاجر اذا دعونا بذلك فقال في الحديث: «اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي فان من صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً، ثم اسألوا الله لي الوسيلة، فانها درجة في الجنة لا ينبغي أن تكون الا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون انا ذلك العبد. فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له شفاعتي يوم القيامة».

[التفصيل في طلب الدعاء من الحي الحاضر القادر]

ويشرع للمسلم أن يطلب الدعاء ممن هو فوقه وممن هو دونه، فقد روي طلب الدعاء من الاعلى والادنى؛ فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودع عمر إلى العمرة؛ وقال: «لا تنسنا من دعائك يا أخي»، لكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أمرنا بالصلاة عليه وطلب الوسيلة له ذكر أن من صلى عليه مرة صلى الله بها عليه عشراً، وأن من سأل له الوسيلة حلت له شفاعته يوم القيامة، فكان طلبه منا لمنفعتنا في ذلك، وفرق بين من طلب من غيره شيئا لمنفعة المطلوب منه، ومن سأل غيره لحاجته اليه فقط، وثبت في الصحيح أنه صلى الله عليه وآله وسلم ذكر أويساً القرني وقال لعمر: «ان استطعت أن يستغفر لك فأفعل» وفي الصحيحين انه كان بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما شيء، فقال أبو بكر لعمر استغفر لي، لكن في الحديث ان ابا بكر ذكر أنه حنق على عمر وثبت ان أقواما كانوا يسترقون، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرقيهم.

وثبت في الصحيحين ان الناس لما أجدبوا سألوا النبي صلى الله عليه

وآله وسلم أن يستسقي لهم فدعا الله لهم فسقوا، وفي الصحيحين أيضاً: ان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ استسقى بالعباس فدعا، فقال اللهم انا كنا اذا أجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا، وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا، فيسقون. وفي السنن ان اعرابيا قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: جهدت الانفس[٢٤]، وجاع العيال، وهلك المال[٢٥] فادع الله لنا، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله، فسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، وقال: «ويحك؟! ان الله لا يستشفع به على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك». فأقره على قوله انا نستشفع بك على الله، وأنكر عليه نستشفع بالله عليك، لان الشافع يسأل المشفوع اليه، والعبد يسأل ربه ويستشفع اليه، والرب تعالى لا يسأل العبد ولا يستشفع به.

[صفة الزيارة المشروعة]

وأما «زيارة القبور المشروعة» فهو ان يسلم على الميت ويدعو له بمنزلة الصلاة على جنازته، كما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعلم اصحابه اذا زاروا القبور أن يقولوا: «سلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين، وانا ان شاء الله بكم لاحقون، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية[٢٦]، اللهم لا تحرمنا اجرهم، ولا تفتنا[٢٧] بعدهم» وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: «ما من رجل يمربقبر رجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه الا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام». والله تعالى يثيب الحي اذا دعا للميت المؤمن، كما يثيبه اذا صلى على جنازته؛ ولهذا نُهِيَ النبي

---

(٢٤) الجَهْد بفتح الجيم: المشقة. وجهدت الأنفس: أي بلغ منها الجهد مبلغه. فهي في مشقة وعناء.

(٢٥) كناية عن هلاك الزروع والسوائم.

(٢٦) العافية: الصحة التامة. والسلامة.

(٢٧) أي لا تضلنا بعدهم.

صلى الله عليه وآله وسلم أن يفعل ذلك بالمنافقين، فقال عز من قائل: ﴿ولا تصلِّ على أحدٍ منهمْ ماتَ أبداً، ولا تقم على قبره﴾[٢٨] فليس في الزيارة الشرعية حاجة الحي الى الميت، ولا مسألته ولا توسله به؛ بل فيها منفعة الحي للميت، كالصلاة عليه، والله تعالى يرحم هذا بدعاء هذا واحسانه اليه، ويثيب هذا على عمله، فانه ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: «اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به من بعده، او ولد صالح يدعو له».

فصل

[سؤال المقبور والاستنجاد به[٢٩] على ثلاث مراتب]

واما من يأتي الى قبر نبي أو صالح، أو من يعتقد فيه انه قبر نبي او رجل صالح وليس كذلك، ويسأله ويستنجده فهذا على ثلاث درجات.

[«١» ان يسأله حاجته ويطلب منه الفعل]

(احداها): ان يسأله حاجته مثل ان يسأله ان يزيل مرضه، او مرض دوابه، أو يقضي دينه، او ينتقم له من عدوه، أو يعافي نفسه وأهله ودوابه، ونحو ذلك مما لايقدر عليه الا الله عز وجل: فهذا شرك صريح، يجب أن يستتاب صاحبه فان تاب والاقتل.

[«٢» ان يطلب منه أن يدعو الله له]

وان قال أنا أسأله لكونه أقرب الى الله مني ليشفع لي في هذه الامور؛ لاني أتوسل الى الله به كما يتوسل الى السلطان بخواصه واعوانه فهذا من أفعال

---

(٢٨) التوبة / ٨٤.

(٢٩) الاستنجاد: الاستعانة وطلب النجدة.

المشركين والنصارى، فانهم يزعمون أنهم يتخذون أحبارهم ورهبانهم شفعاء يستشفعون بهم في مطالبهم، وكذلك أخبر الله عن المشركين أنهم قالوا: ﴿ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى﴾[٣٠] وقال سبحانه وتعالى: ﴿أم اتخذوا من دون اللهِ شُفَعَاءَ قلْ أوَ لوْ كانوا لا يملِكونَ شيئاً ولا يعقلونَ. قل: للهِ الشفاعةُ جميعاً، لَهُ ملكُ السمواتِ والارضِ، ثم اليه ترجعون﴾[٣١] وقال تعالى: ﴿مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾[٣٢] وقال تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه﴾[٣٣] فبين الفرق بينه وبين خلقه. فان من عادة الناس أن يستشفعوا الى الكبير من كبرائهم بمن يكرم عليه، فيسأله ذلك الشفيع، فيقضي حاجته: اما رغبة، وإما رهبة، واما حياء واما مودة، واما غير ذلك، والله سبحانه لا يشفع عنده أحد حتى يأذن هو للشافع، فلا يفعل الا ما شاء، وشفاعة الشافع من اذنه، فالامر كله له.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: «لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي ان شئت، اللهم ارحمني ان شئت، ولكن ليعزم المسألة فان الله لا مكره له». فبين ان الرب سبحانه يفعل ما يشاء لا يكرهه أحد على ما اختاره، كما قد يكره الشافع المشفوع اليه، وكما يكره السائل المسؤول اذا ألح عليه وآذاه بالمسألة. فالرغبة يجب أن تكون اليه كما قال تعالى: ﴿فإذا فرغتَ فانصبْ والى رَبِّكَ فارغبْ﴾[٣٤] والرهبة تكون من الله كما قال تعالى: ﴿وإياي فارهبون﴾[٣٦] وقال تعالى: ﴿فلا

---

(٣٠) سورة الزمر/٣.
(٣١) سورة الزمر/٤٣ ـ ٤٤.
(٣٢) سورة السجدة/٤.
(٣٣) سورة البقرة/٢٢٥.
(٣٤) سورة الانشراح/٧ـ٨.
(٣٥) الرهبة: الخوف، ومثلها الخشية.

تخشوا الناس واخشون﴾[٣٧]وقد أمرنا أن نصلي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الدعاء، وجعل ذلك من أسباب اجابة دعائنا.

وقول كثير من الضلّال[٣٨]: هذا أقرب الى الله مني، وأنا بعيد من الله لا يمكنني أن أدعوه الا بهذه الواسطة، ونحو ذلك. من أقوال المشركين، فان الله تعالى يقول: ﴿وإذا سألكَ عبادِيَ عنّي فاني قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعِ اذا دعانِ﴾[٣٩]وقد روي: أن الصحابة قالوا يا رسول الله: ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله هذه الآية. وفي الصحيح أنهم كانوا في سفر وكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أيها الناس اربعوا[٤٠] على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا بل تدعون سميعا قريبا إن الذي تدعونه أقرب الى أحدكم من عنق راحلته»وقد أمر الله تعالى العباد كلهم بالصلاة له ومناجاته وأمر كلا منهم أن يقولوا﴿اياكَ نعبدُوإياك نستعينُ﴾[٤١] وقد أخبر عن المشركين أنهم قالوا﴿ما نعبدُهُم إلا ليقربونَا الى اللهِ زُلفى﴾[٤٢].

ثم يقال لهذا المشرك أنت اذا دعوت هذا فإن كنت تظن انه أعلم بحالك وأقدر على عطاء سؤ الك أو أرحم بك فهذا جهل وضلال وكفر، وان كنت تعلم أن الله أعلم وأقدر وأرحم فلم عدلت عن سؤ اله الى سؤ ال غيره؟ ألا تسمع الى ما اخرجه البخاري وغيره عن جابر رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله

---

(٣٦) سورة البقرة / ٤٠.
(٣٧) سورة المائدة / ٤٤.
(٣٨) الضُلّال: جمع مفرده ضالّ: خلاف المهتدي. ويجمع على ضالّين أيضاً.
(٣٩) سورة البقرة / ١٨٦.
(٤٠) اربعوا على أنفسكم: أي خففوا عليها.
(٤١) الفاتحة / ٥.
(٤٢) الزمر / ٣.

عليه وآله وسلم يعلمنا الاستخارة[٤٣] في الامور، كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: اذا همّ[٤٤] احدكم بأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم: اني استخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك[٤٥]، وأسألك من فضلك العظيم، فانك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب[٤٦]، اللهم: ان كنت تعلم أن هذا الامر خير لي في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري، فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وان كنت تعلم ان هذا الامر شر لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري، فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر[٤٧] لي الخير حيث كان، ثم أرضني به ـ قال ـ ويسمى حاجته» أمر العبد أن يقول: استخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم.

وان كنت تعلم انه أقرب الى الله منك واعلى درجة عند الله منك فهذا حق؛ لكن كلمة حق اريد بها باطل، فانه اذا كان اقرب منك وأعلى درجة منك فانما معناه ان يثيبه الله ويعطيه اكثر مما يعطيك، وليس معناه انك اذا دعوته كان الله يقضي حاجتك اعظم مما يقضيها اذا دعوت انت الله تعالى: فانك ان كنت مستحقا للعقاب ورد الدعاء ـ مثلا لما فيه من العدوان ـ فالنبي أو الصالح لا يعين على مايكرهه الله، ولا يسعى فيما يبغضه الله وان لم يكن كذلك فالله أولى بالرحمة والقبول.

---

(٤٣) الإستخارة: طلب الخِيَرَة. واستخار الله: طلب منه تعالى أن يختار له ما يوافقه.

(٤٤) الهمّ بالأمر: العزم عليه.

(٤٥) يقال: استقدر الله خيراً: أي سأله أن يقسم له به. واستقدر الله: استعان بقدرته.

(٤٦) الغيب: كل ما غاب. وعلّام الغيوب: ضعف اسم الفاعل دلالة على المبالغة. والمعنى أن أي غيب فلا يعلمه إلا الله. ولا يظهر عليه أحداً من خلقه إلا من شاء. قال تعالى: (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) وفي سورة الجن: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً. إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً).

(٤٧) يقال: قَدَر الشيء: أي قدَّره، من التقدير.

وان قلت: هذا اذا دعا الله اجاب دعاءه اعظم مما يجيبه اذا دعوته. فهذا هو «القسم الثاني» وهو ان لا تطلب منه الفعل ولا تدعوه، ولكن تطلب أن يدعو لك. كما تقول للحي: ادع لي، وكما كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يطلبون من النبي صلى الله عليه وآله وسلم الدعاء، فهذا مشروع في الحي كما تقدم، واما الميت من الانبياء والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا ان نقول: ادع لنا، ولا اسأل لنا ربك، ولم يفعل هذا أحد من الصحابة والتابعين، ولا امر به احد من الأئمة، ولا ورد فيه حديث، بل الذي ثبت في الصحيح أنهم لما اجدبوا زمن عمر ـ رضي الله عنه ـ استسقى بالعباس، وقال: اللهم! انا كنا اذا اجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا، وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا، فيسقون. ولم يجيئوا الى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم قائلين: يا رسول الله! ادع الله لنا واستسق لنا، ونحن نشكو اليك مما أصابنا، ونحو ذلك. لم يفعل ذلك احد من الصحابة قط، بل هو بدعة، ما أنزل الله بها من سلطان، بل كانوا اذا جاؤا عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسلمون عليه، فاذا أرادوا الدعاء لم يدعوا الله مستقبلي القبر الشريف، بل ينحرفون ويستقبلون القبلة، ويدعون الله وحده لا شريك له كما يدعونه في سائر البقاع.

[التحذير من اتخاذ قبره «ص» وثناً وعيداً]

وذلك أن في «الموطأ» وغيره عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اللهم لا تجعل قبري وثنايعبد. اشتدغضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وفي السنن عنه أنه قال «لا تتخذوا قبري عيداً، وصلوا على حيثما كنتم، فان صلاتكم تبلغني» وفي الصحيح عنه انه قال في مرضه الذي لم يقم منه: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما فعلوا. قالت عائشة رضي الله عنها وعن ابويها: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره ان يتخذ مسجداً، وفي صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وآله وسلم انه قال قبل ان يموت بخمس:

«ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، الا فلا تتخذوا القبور مساجد، فاني أنهاكم عن ذلك» وفي سنن أبي داود عنه قال: «لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج».

ولهذا قال علماؤنا لا يجوز بناء المسجد على القبور، وقالوا: انه لا يجوز أن ينذر لقبر، ولا للمجاورين عند القبر شيئاً من الأشياء، لا من درهم، ولا من زيت، ولا من شمع ولا من حيوان، ولا غير ذلك، كله نذر معصية وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: «من نذر ان يطيع الله فليطعه، ومن نذر ان يعصي الله فلا يعصه» واختلف العلماء: هل على الناذر كفارة يمين؟ على قولين، ولهذا لم يقل أحد من أئمة السلف: ان الصلاة عند القبور وفي مشاهد القبور مستحبة، أو فيها فضيلة، ولا ان الصلاة هناك والدعاء أفضل من الصلاة في غير تلك البقعة والدعاء، بل اتفقوا كلهم على ان الصلاة في المساجد والبيوت أفضل من الصلاة عند القبور ـ قبور الانبياء والصالحين ـ سواء سميت «مشاهد» او لم تسم.

وقد شرع الله ورسوله في «المساجد» دون «المشاهد» أشياء. فقال تعالى ﴿ومن أظلمُ ممنْ منعَ مَساجدَ اللهِ أن يَذكرَ فيها اسمهُ وسُعى في خرابها﴾(٤٨) ولم يقل: المشاهد. وقال تعالى: ﴿وأنتم عاكفونَ في المساجدِ﴾(٤٩) ولم يقل في المشاهد، وقال تعالى: ﴿قل اَمَرَ ربِّي بالقسط؟، وأقيموا وجوهكُمْ عندَ كل مسجدٍ﴾(٥٠)، وقال تعالى: ﴿إنما يعمرُ مساجدَ اللهِ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ واقامَ الصلاة وآتى الزكات ولم يخشَ الا الله، فعسى أولئك أنْ يكونوا من

(٤٨) سورة البقرة / ١١٤.
(٤٩) سورة البقرة / ١٨٧.
(٥٠) سورة الاعراف / ٢٩.

المهتدين﴾[٥١] وقال تعالى: ﴿وان المساجدَ للهِ، فلا تَدْعوا مَعَ اللهِ احداً﴾[٥٢] وقال صلى الله عليه وآله وسلم «صلاة الرجل في المسجد تفضل على صلاته في بيته وسوقه بخمس وعشرين ضعفا» وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة».

[لعنه من اتخذ القبور مساجد]

واما القبور فقد ورد نهيه صلى الله عليه وآله وسلم عن اتخاذها مساجد، ولعن من يفعل ذلك وقد ذكره غير واحد من الصحابة والتابعين، كما ذكره البخاري في صحيحه والطبراني وغيره في تفاسيرهم، وذكره وثيمة وغيره في «قصص الانبياء» في قوله تعالى: ﴿وقالوا لا تذرُنَّ آلهتكم ولا تذرُنَّ وُدّاً ولا سُواعاً ولا يغوثَ ويعُوقَ ونَسرْا﴾[٥٣] قالوا: هذه اسماء قوم صالحين كانوا من قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم طال عليهم الامد فاتخذوا تماثيلهم أصناماً؟ وكان العكوف على القبور والتمسح بها وتقبيلها والدعاء عندها وفيها ونحو ذلك هو أصل الشرك وعبادة الاوثان؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد».

واتفق العلماء على أن من زار قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين ـ الصحابة وأهل البيت وغيرهم ـ انه لا يتمسح به، ولا يقبله؛ بل ليس في الدنيا من الجمادات ما يشرع تقبيلها الا الحجر الاسود، وقد ثبت في الصحيحين: ان عمر رضي الله عنه قال: والله! اني لأعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقبلك ما قبلتك.

---

(٥١) سورة التوبة / ١٨.
(٥٢) سورة الجن ١٨/
(٥٣) سورة نوح / ٢٣.

ولهذا لا يسن باتفاق الأئمة ان يقبل الرجل او يستلم ركني البيت ـ اللذين يليان الحجر ـ ولا جدران البيت، ولا مقام ابراهيم، ولا صخرة بيت المقدس، ولا قبر أحد من الأنبياء والصالحين. حتى تنازع الفقهاء في وضع اليد على منبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما كان موجوداً، فكرهه مالك وغيره، لأنه بدعة، وذكر أن مالكا لما رأى عطاء فعل ذلك لم يأخذ عنه العلم، ورخص فيه أحمد وغيره؛ لأن ابن عمر رضي الله عنهما فعله. وأما التمسح بقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتقبيله فكلهم كره ذلك ونهى عنه؛ وذلك لأنهم علموا ما قصده النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حسم مادة الشرك، وتحقيق التوحيد واخلاص الدين لله رب العالمين.

[نهي الانبياء وعقوبتهم لمن يشرك بهم في حياتهم]

وهذا ما يظهر الفرق بين سؤال النبي صلى الله عليه وآله وسلم والرجل الصالح في حياته، وبين سؤاله بعد موته وفي مغيبه؛ وذلك أنه في حياته لا يعبده أحد بحضوره، فاذا كان الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ والصالحون أحياء لا يتركون أحداً يشرك بهم بحضورهم؛ بل ينهونهم عن ذلك، ويعاقبونهم عليه، ولهذا قال المسيح عليه السلام: ﴿ما قلتُ لهمْ إلّا ما أمرتني به: أنِ اعبُدُوا اللهَ ربِّي وربَّكُمْ، وكنتُ عليهمْ شهيداً ما دمتُ فيهمْ، فلمّا توفَّيتني كنتَ أنتَ الرقيب عليهمْ، وأنتَ على كلِّ شيءٍ شهيد﴾[٥٤] وقال رجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجعلتني لله نداً؟ ما شاء الله وحده» وقال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد» ولما قالت الجويرية: وفينا رسول الله يعلم ما في غد. قال: «دعي هذا، وقولي بالذي كنت تقولين». وقال «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ انما أنا

---

(٥٤) سورة المائدة/١١٧.

عبد، فقولوا عبد الله ورسوله» ولما صفوا خلفه قياما «قال: لا تعظموني كما تعظم الأعاجم بعضهم بعضا» وقال أنس لم يكن شخص أحب اليهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له؛ لما يعلمون من كراهته لذلك ولما سجد له معاذ نهاه، وقال: «انه لا يصلح السجود الا لله، ولو كنت آمراً احداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة ان تسجد لزوجها ـ من عظم حقه عليها» ولما أتي علي بالزنادقة الذين غلوا فيه واعتقدوا فيه الالهية أمر بتحريقهم بالنار.

فهذا شأن أنبياء الله وأوليائه، وانما يقر على الغلو فيه وتعظيمه بغير حق من يريد علواً في الارض وفساداً (٥٥)، كفرعون ونحوه، ومشايخ الضلال الذين غرضهم العلو في الأرض والفساد، والفتنة بالأنبياء والصالحين، واتخاذهم أرباباً، والاشراك بهم إنما يحصل في مغيبهم وفي مماتهم، كما أشرك بالمسيح وعزير.

فهذا مما يبين الفرق بين سؤال النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصالح في حياته وحضوره، وبين سؤاله في مماته ومغيبه، ولم يكن أحد من سلف الأمة في عصر الصحابة ولا التابعين ولا تابعي التابعين يتحرون الصلاة والدعاء عند قبور الأنبياء ويسألونهم، ولا يستغيثون بهم؛ لا في مغيبهم، ولا عند قبورهم، وكذلك العكوف (٥٦).

ومن أعظم الشرك ان يستغيث الرجل بميت أو غائب، كما ذكره السائل،

---

(٥٥) والمسلم أبعد ما يكون عن إرادة ذلك أو ابتغائه، ذلك أن غاية المسلم أن يقوم بالعبودية وأمانة الخلافة في الأرض ليلقى الله وهو عنه راضٍ. قال تعالى: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) [القصص: ٨٣]

(٥٦) قال تعالى: (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتَوْا على قوم يعكُفون على أصنام لهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهةٌ، قال إنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متَّبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون). [الأعراف: ١٣٨-١٣٩]

ويستغيث به عند المصائب يقول: ياسيدي فلان! كأنه يطلب منه إزالة ضره أو جلب نفعه، وهذا حال النصارى في المسيح وأمه وأحبارهم ورهبانهم، ومعلوم أن خير الخلق وأكرمهم على الله نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأعلم الناس بقدره وحقه أصحابه: ولم يكونوا يفعلون شيئاً من ذلك؛ لا في مغيبه، ولا بعد مماته. وهؤلاء المشركون يضمون الى الشرك الكذب؛ فان الكذب مقرون بالشرك، وقد قال تعالى: ﴿فاجتَنِبُوا الرِّجسَ من الأوثانِ، واجتَنِبُوا قولَ الزورِ حُنفاءَ للهِ؛ غيرَ مُشركينَ بهِ﴾(٥٧) وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «عدلَت شهادة الزور الاشراك بالله. مرتين، أو ثلاثاً» وقال تعالى: ﴿ان الذينَ اتَّخذُوا العِجلَ(٥٨) سينالُهُمْ غضبٌ من ربِّهم ، وذلةٌ في الحياةِ الدنيا ، وكذلكَ نجزي المفترين﴾(٥٩) وقال تعالى على لسان الخليل عليه السلام: (أإفكًا آلهةً دونَ اللهِ تُريدون؟ فما ظَنُّكُمْ بربِّ العالمينَ)(٦٠).

فمن كذبهم ان أحدهم يقول عن شيخه ان المريد اذا كان بالمغرب وشيخه بالمشرق وانكشف غطاؤه رده عليه، وان الشيخ ان لم يكن كذلك لم يكن شيخاً. وقد تغويهم الشياطين، كما تغوي عبادة الأصنام كما كان يجري

---

(٥٧) سورة الحج/٣١. : الرجس الشيء القذر والمستقبح. واستعمل للشرك لأنه أقبح الأشياء وأما قول الزور فهو الكذب سمي بذلك لكونه مائلاً عن جهة الحق. وحنفاء لله: أي مستقيمين. إذ الحَنَف هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة. ويقال: تحنّف فلان: أي تحرَّى طريق الاستقامة.

(٥٨) إشارة إلى العجل الذي صنعه السامريّ لبني اسرائيل فعبدوه. قال تعالى: (واتخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلاً جسداً له خوار) [الأعراف: ١٤٨]. وفي سورة طه: (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حُمّلنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري. فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار قال هذا إلهكم وإله موسى فنسي..).

(٦٠) الصافات/٨٧. والإفك: كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه. قال الراغب الأصفهاني في الآية: يصح أن يجعل تقديره أتريدون آلهة من الإفك، ويصح أن يُجعل إفكاً مفعول تريدون ويجعل آلهةً بدلاً منه ويكون قد سماهم إفكاً ورجل مأفوك: مصروف عن الحق إلى الباطل.

للعرب في اصنامهم ، ولعباد الكواكب وطلاسمها: من الشرك والسحر، كما يجري للتتار، والهند، والسودان، وغيرهم من أصناف المشركين: من إغواء الشياطين ومخاطبتهم ونحو ذلك، فكثير من هؤلاء قد يجري له نوع من ذلك، لا سيما عند سماع المكاء والتصدية [٦١]؛ فان الشياطين قد تنزل عليهم، وقد يصيب أحدهم كما يصيب المصروع: من الارغاء، والازباد [٦٢]، والصياح المنكر، وتكلمه بما لا يعقل هو والحاضرون، وأمثال ذلك مما يكثر وقوعه في هؤلاء الضالين.

[«٣» السؤال بالجاه [٦٣] ونحوه من البدع]

وأما (القسم الثالث) وهو ان يقول: اللهم بجاه فلان عندك، او ببركة فلان، او بحرمة فلان عندك: افعل بي كذا ، وكذا. فهذا يفعله كثير من الناس؛ لكن لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين وسلف الأمة انهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء، ولم يبلغني عن احد من العلماء في ذلك ما احكيه؛ الا ما رأيت في فتاوى الفقيه أبي محمد بن عبد السلام. فانه أفتى: أنه لا يجوز لأحد ان يفعل ذلك؛ إلا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ ان صح الحديث في النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ ومعنى الاستفتاء: قد روى النسائي والترمذي وغيرهما ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم علم بعض أصحابه أن يدعو فيقول: «اللهم: اني أسألك وأتوسل اليك بنبيك نبي الرحمة. يا محمد: يا رسول الله! اني أتوسل بك الى ربي في حاجتي ليقضيها لي. اللهم: فشفعه في » فان هذا

---

(٦١) قال تعالى يصف المشركين: (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكاءً وتصدية). والمكاء: الصفير والتصدية كل صوت يجري مجرى الصدى في أن لا غناء فيه.

(٦٢) الإرغاء: يكون في اللبن بظهور الرغوة فيه. وإرغاء الإنسان: تعبير عما يظهر على فمه من الرغوة إثر غضب أو صرع أو نحوهما. وكذلك الإزباد لأنه يقال للقِدر والبحر والفم إذا أُخرج الزبد وقذف به.

(٦٣) الجاه: القَدْر والمنزلة.

الحديث قد استدل به طائفة على جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في حياته وبعد مماته. قالوا: وليس في التوسل دعاء المخلوقين، ولا استغاثة المخلوق، وانما هو دعاء واستغاثة بالله، لكن فيه سؤال بجاهه، كما في سنن ابن ماجة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه ذكر في دعاء الخارج للصلاة ان يقول: «اللهم اني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي هذا، فاني لم أخرج أشراً ولا بطراً (٦٤)، ولا رياء ولا سمعة. خرجت اتقاءِ سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

قالوا: ففي هذا الحديث انه سأل بحق السائلين عليه وبحق ممشاه الى الصلاة والله تعالى قد جعل على نفسه حقاً، قال الله تعالى: ﴿وكانَ حقاً علينا نصرُ المؤمنين﴾(٦٥) ونحو قوله: ﴿كان على ربِّك وعداً مسؤولا﴾(٦٦) وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟» قال الله ورسوله اعلم، قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. أتدري ما حق العباد على الله اذا فعلوا ذلك؟ فان حقهم عليه أن لا يعذبهم» وقد جاء في غير حديث: «كان حقاً على الله كذا وكذا» كقوله: «من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين يوماً، فان تاب تاب الله عليه، فان عاد فشربها في الثالثة أو الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال ـ قيل: وما طينة الخبال؟ قال: عصارة أهل النار».

وقالت طائفة ليس في هذا جواز التوسل به بعد مماته وفي مغيبه؛ بل انما

---

(٦٤) الأشر والبطر: بمعنى واحد. وأصلهما شدة المرح والمراد العبث والكِبر. إذ وصف الكبر بالمرح في قوله تعالى (ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً).

(٦٥) الروم / ٤٧.

(٦٦) الفرقان / ١٦.

فيه التوسل في حياته بحضوره، كما في صحيح البخاري: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس؛ فقال: اللهم انا كنا اذا اجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا، وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا، فيسقون. وقد بين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ انهم كانوا يتوسلون به في حياته فيسقون.

وذلك التوسل به انهم كانوا يسألونه أن يدعو الله لهم فيدعو لهم، ويدعون معه، ويتوسلون بشفاعته ودعائه، كما في الصحيح عن انس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ ان رجلا دخل المسجد يوم الجمعة من باب كان بجوار «دار القضاء» ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائم يخطب، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائما: فقال: يا رسول الله! هلكت الأموال، وانقطعت السبل. فادع الله لنا أن يمسكها عنا، قال: فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يديه ثم قال: «اللهم: حوالينا [٦٧] ولا علينا. اللهم على الآكام والضراب وبطون الأودية [٦٨] ومنابت الشجر» قال: وأقلعت [٦٩] فخرجنا نمشي في الشمس، ففي هذا الحديث انه قال: ادع الله ان يمسكها عنا. وفي الصحيح ان عبد الله بن عمر قال: انى لاذكر قول أبي طالب في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى [٧٠] عصمة للأرامل

---

(٦٧) يقال: حال إلى مكان آخر، يحول حَوْلاً وحِوَلاً بكسر الحاء وفتح الواو: أي تحول. يقال: قعد حوله وحواله وحَولَيْه وَحَوالَيْه. وجاءت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بصيغة الطلب والدعاء بمعنى: اللهم اجعل ذلك حول أطراف بلدنا لا عليه.

(٦٨) الآكام والأكم والأكمات جمع مفرده: أكمة: التل أو الموضع الذي يكون أكثر ارتفاعاً مما حولهُ.

والضراب مضارب الخيام التي تكون حول البلد. وبطون الأودية: دَخَلُها.

(٦٩) الإقلاع عن الأمر: الكف عنه. قال تعالى: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي..).

(٧٠) المراد أنه مطعم اليتامى.

فهذا كان توسلهم به في الاستسقاء ونحوه . ولما مات توسلوا بالعباس رضي الله عنه، كما كانوا يتوسلون به ويستسقون. وما كانوا يستسقون به بعد موته، ولا في مغيبه ولا عند قبره ولا عند قبر غيره، وكذلك معاوية بن ابي سفيان استسقى بيزيد بن الأسود الجرشي، وقال: اللهم إنا نستشفع اليك بخيارنا! يا يزيد ارفع يديك الى الله! فرفع يديه، ودعا، ودعوا، فسقوا. فلذلك قال العلماء يستحب ان يستسقى بأهل الصلاح والخير، فاذا كانوا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان أحسن. ولم يذكر احد من العلماء انه يشرع التوسل والاستسقاء بالنبي والصالح بعد موته ولا في مغيبه، ولا استحبوا ذلك الاستسقاء ولا في الاستنصار ولا غير ذلك من الأدعية. والدعاء مخ العبادة(٧١).

والعبادة مبناها على السنة والاتباع، لا على الأهواء والابتداع، وانما يعبد الله بما شرع، لا يعبد بالأهواء والبدع، قال تعالى: ﴿امْ لهمْ شرُكاء شرعوا لهمْ مِن الدينِ ما لمْ يأذنْ بهِ اللهُ﴾(٧٢) وقال تعالى: ﴿ادعوا ربَّكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين﴾(٧٣) وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: انه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الدعاء والطهور.

وأما الرجل اذا أصابته نائبة أو خاف شيئا فاستغاث بشيخه يطلب تثبيت قلبه من ذلك الواقع، فهذا من الشرك، وهو من جنس دين النصارى، فان الله هو الذي يصيب بالرحمة ويكشف الضر، قال تعالى: ﴿ وان تَمْسَسْكَ اللهُ بضُرٍّ فلا كاشَفَ له الاّ هوَ، وان يُرِدْكَ بخيرٍ فلا رادَّ لفضلهِ﴾(٧٤) وقال تعالى: ﴿ما يفتح

---

(٧١) مخ كل شيء أصله. وفي رواية (الدعاء هو العبادة).
(٧٢)سورة الشورى / ٢١.
(٧٣) سورة الأعراف / ٥٥.
(٧٤) سورة الأنعام / ١٧.

اللهُ للناسِ من رحمةٍ فلا ممسكَ لها، وما يُمسِكَ فلا مرسل له من بعده﴾[٧٥] وقال تعالى: ﴿قل: أرأيتكم[٧٦] انْ أتاكُمْ عذابُ اللهِ أو أتتْكُمْ الساعةُ أغيرَ الله تدعون إنْ كنتمْ صادقين ؛ بلْ اياهُ تدعونَ ، فيكشفُ ما تدعونَ اليهِ ، انْ شاءَ ، وتنسوْنَ ما تشركون﴾[٧٧] وقال تعالى : ﴿ قلِ ادعوا الذينَ زعمتُمْ من دونِه فلا يملِكونَ كَشْفَ الضُّرِّ عنكُمْ ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعونَ يبتغونَ الى ربِّهمُ الوسيلة أيُّهم أقرب ، ويرجونَ رحمتَهُ ، ويخافون عذابَهُ ان عذاب ربِّك كان محذورا﴾[٧٨] فبين أن من يدعى من الملائكة والأنبياءوغيرهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا .

فاذا قال قائل: أنا أدعو الشيخ ليكون شفيعا لي فهو من جنس دعاء النصارى لمريم والأحبار والرهبان. والمؤمن يرجو ربه ويخافه، ويدعوه مخلصا له الدين، وحق شيخه أن يدعو له ويترحم عليه؛ فان أعظم الخلق قدرا هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأصحابه أعلم الناس بأمره وقدره، وأطوع الناس له، ولم يكن يأمر أحدا منهم عند الفزع والخوف أن يقول: ياسيدي! يا رسول الله ولم يكونوا يفعلون ذلك في حياته ولا بعد مماته؛ بل كان يأمرهم بذكر الله ودعائه والصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال الله تعالى: ﴿الذينَ قالَ لهُمْ الناسُ انَّ الناسَ قَد جَمَعوا لكُمْ[٧٩]فاخشْوْهُمْ، فزادهُمْ ايمانا، وقالوا حَسْبنَا اللهُ ونعمَ الوكيلِ ، فانقلبوا بنعمةٍ منَ اللهِ وفضلٍ لَمْ

---

(٧٦) يجري (أرأيت) مجرى: أخبرني ، فيدخل عليه الكاف ويترك التاء على حالته في التثنية والجمع والتأنيث ويسلط التغيير على الكاف دون التاء.

(٧٥) فاطر / ٢.

(٧٧) الأنعام / ٤٠ ـ ٤١.

(٧٨) الاسراء / ٥٦ ـ٥٧.

(٧٩) قال الراغب الأصفهاني: قيل جمعوا آراءهم في التدبير عليكم، وقيل : جمعوا جنودهم.

يَمْسَسْهُمْ سوءٌ، واتَّبعوا رضوانَ اللهِ، واللهُ ذو فضلٍ عظيم﴾[٨٠] وفي صحيح البخاري عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أن هذه الكلمة قالها ابراهيم- عليه السلام- حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وآله وسلم- يعني وأصحابه- حين قال لهم الناس: ان الناس قد جمعوا لكم.

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه كان يقول عند الكرب: «لا اله الا الله العظيم الحليم، لا اله الا الله رب العرش الكريم، لا اله الا الله رب السموات والارض ورب العرش العظيم» وقدروي أنه علم نحو هذا الدعاء بعض أهل بيته ، وفي السنن أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان اذا حز به أمر [٨١] قال: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث» وروى أنه علم ابنته فاطمة أن تقول: يا حي يا قيوم، يا بديع السموات والارض، لا اله الا انت، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني الى نفسي طرفة عين ولا الى أحد من خلقك».

وفي مسند الامام أحمد وصحيح أبي حاتم البستي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: «ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن فقال: اللهم اني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي: الا أذهب الله همه وغمه، وأبدله مكانه فرحا: قالوا: يا رسول الله: أفلا نتعلمهن؟ قال: ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن». وقال لامته: «ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا

---

(٨٠) آل عمران / ١٧٣ - ١٧٤.

(٨١) يقال: حزبه الأمر: إذا أصابه واشتد عليه.

لحياته، ولكن الله يخوف بهما عباده، فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى [٨٢] الصلاة، وذكر الله، والاستغفار» فأمرهم عند الكسوف بالصلاة والدعاء والذكر والعتق والصدقة، ولم يأمرهم أن يدعوا مخلوقا ولا ملكا ولا نبيا ولا غيرهم.

ومثل هذا كثير في سنته: لم يشرع للمسلمين عند الخوف الا ما أمر الله به: من دعاء الله، وذكره والاستغفار، والصلاة، والصدقة، ونحو ذلك. فكيف يعدل المؤمن بالله ورسوله عما شرع الله ورسوله الى بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، تضاهي دين المشركين والنصارى؟.

فان زعم أحد أن حاجته قضيت بمثل ذلك؛ وانه مثل له شيخه ونحو ذلك، فعباد الكواكب والأصنام ونحوهم من أهل الشرك يجري لهم مثل هذا، كما قد تواتر ذلك عمن مضى من المشركين، وعن المشركين في هذا الزمان. فلولا ذلك ما عبدت الاصنام ونحوها، قال الخليل عليه السلام: ﴿واجنبني وبني أنْ نعبدَ الاصنامَ. ربِّ انهن أضللن كثيرا من الناس﴾[٨٣].

[سبب حدوث الشرك في مكة بعد ابراهيم]

ويقال: إن أول ما ظهر الشرك في أرض مكة بعد ابراهيم الخليل من جهة «عمرو بن لحي الخزاعي» الذي رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجر أمعاءه في النار، وهو أول من سيب السوائب، وغير دين ابراهيم قالوا: انه ورد الشام، فوجد فيها أصناما بالبلقاء، يزعمون انهم ينتفعون بها في جلب منافعهم ودفع مضارهم، فنقلها الى مكة، وسن للعرب الشرك وعبادة الاصنام.

---

(٨٢) يقال: فزع إليه: أي لجأ إليه.
(٨٣) سورة ابراهيم / ٣٥.